

المسيح

إنسان أم إله

المستشار الدكتور

محمد مجدى مرجان

رئيس محكمة الجنايات والإستئناف العليا

كان مسيحيا فأسلم

الناشر

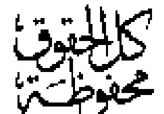
مكتبة النافذة

المسيح إنسان أم إله

تأليف: محمد مجدي مرجان

الطبعة الأولى ١٩٧٢

الطبعة الثانية ٢٠٠٤



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدي الثلاثيني - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٣

الآلهة المصنوعة

وكنت لأعبد المسيح، ولأرفعه إلها فوق الآلهة: فلما عبدته شككت. فبحثت عن الحقيقة وبعدما عرفتها، وقال لي المسيح: يا عبد الله أنا عبد مثلك فلا تشرك بالخالق ربك المخلوق، ولكن اتق ربي وربك واعبده وحده، وادعه ليجعل لك سويا إليه وإليها. حمداً لك وسبحانك رب العالمين (إياك نعبد وإياك نستعين). يا عبد الله أنا وأنت وباقي الناس عبيد الرحمن.

فآمنت بالله، وصدقت المسيح، وكفرت بالآلهة المصنوعة.

محمد مجدي مرجان

باسمك اللهم

مقدمة

لم يختلف النـاس حول شخـصية في التـاريخ قدر اختـلافهم حول عـيسى الملقب بالمسيح، ولم يتناحر الناس بسبب إنسان في الوجود قدر تناحرهم بسبب عيسى ابن الإنسان، ولم يتقـاتل الناس لشيء في الدنيا قـدر تقاتلهم من أجل عيسى ابن الله.

اختـلف الناس وتناحروا وتنابذوا، وكـان اختـلافهم بينًا وتنـاحرهم شـرسًا وتنابذهم عـميقًـا، وصل في أحد حـديه إلى إنكار وجـود عيسى في التـاريخ واعتباره مجرد أسطورة خيالية حاكتها أحلام الواهمين.

يقول ول ديورانت: «هل وجـد المسيح حقًـا؟ أم أن قصة مـؤسس المسيحـية وثمرة أحزان البـشرية وخيالهـا وآمالها أسطورة من الأساطيـر شبيهـة بخرافات كرشنا وأوزوريس وأدونيس وديونيشس ومثراس؟»[1].

ثم وصل الخلاف في حده الآخر إلى اعتبار عيسى إله الكون ورب الوجود.

«أنا هو الطريق والحق والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا» (إنجيل يوحنا).

وبين هؤلاء وهؤلاء، بين المكذبين والمؤلهين، آلاف الملايين من الناس على مر العصور، وقفوا بين الحـدين، مقتربين ومبتعدين، مكبرين ومسـتهينين، محبين وكارهين، مادحين وقادحين، منصفين ومغرضين.

رفعه بعـضهم إلى مرتبة الآلهة ثم اختـلفوا حول طبيعتـه الإلهية هل هو إله خالص، أم شخصـية مزدوجة نصفها إله ونصـفها إنسان؟ وهل هو ذات الله أم

---

(١) قصة الحضارة - جـ (٣) - ترجمة محمد بدران ص ٢٠٢ .

ابن الله أم بعض الله؟ واقترب به بعضهم إلى درجة أدنى من الملائكة، وساواه بعضهم بالملائكة، وارتفع به آخرون إلى مرتبة أعلى من الملائكة.

قال البعض إنه إنسان، ثم دب بين هؤلاء البعض الخلاف هل هو نبي أم إنسان عادي؟ وهل كان صالحًا أم فاسدًا، بارًا أم شريرًا، طيبًا أم مشعوذًا، صادقًا أم كاذبًا، عاقلاً أم مجنونًا، عبدًا لله أم حليفًا للشيطان؟.

هل كان عيسى هو «المسيح» حقًا، أم هو «الكلمة»، أم هو «الناصري» ، أم «ابن داود»، وهل ولد حقًا من عذراء كما يقول البعض، أم حمل به سفاح كما يدعي الآخرون، وهل ذبح عيسى حقًا على الصليب أم صلب عنه آخر؟ ولماذا صلب هذا أو ذاك؟ أمن أجل الخطيئة الأولى فعلاً، أم من أجل ذنب ارتكبه هو؟

خلافات ومشاحنات، وادعاءات وتكذيبات، حولت الرسالة المسيحية السامية إلى شتات وشذرات، وأوجدت الفرقة والانقسام بين أتباع الدين الواحد وعباد الله الواحد فتفرقوا مذاهب شتى وطوائف متعددة كل منها ترى المسيح عيسى من الجانب الذي يروقها، وكل منها ينظر إليه من الوجهة التي يراها، وكل منها يصوره على الصورة التي يبتغيها.

خلافات ومشاحنات تعددت المناقشة والمجادلة إلى الدس والوقيعة بل إلى القتال العلني وإقامة المذابح بين أصحاب هذه النحل المختلفة. تقاتل أحباء عيسى وتقاطع أعداؤه حول طبيعته وكيانه، وحول نفسيته وخصاله وعيسى نفسه بريء من كل هذه التوهمات أتى ليدعوهم إلى السلام والمحبة، وإلى التآلف والرحمة فحملوا السيف إرضاءً لشهواتهم ومصالحهم وظلموا عيسى وتعاليمه.

وفي هذا الكتاب محاولة للتنقيب عن حقيقة المسيح عيسى، في عرض لمختلف الآراء والنظريات التي اختلفت حوله، علنا نلقي قبسًا من الضوء على هذه الشخصية التي حيرت الناس في مختلف الأزمان والبقاع، والله يوفقنا إلى الهدى والحق.

محمد مجدي مرجان

الفصل الأول

مولد المخلص

● **الشعب المقدس:**

بنو إسرائيل، شعب الله المختار، اختارهم شعبًا خاصًا له دون سائر الشعوب، خلق العالم كله من أجلهم، وخلق باقي الأمم لخدمتهم، هم وحدهم الناس والباقون عبيد وخدم وكلاب وخنازير.

يقول يهوه إله إسرائيل لشعبه المختار «وأنتم تكونون لي مملكة أحبار وشعبًا مقدسًا» (خروج ١٩ - ٦).

ويقول لهم موصيًا «مباركًا تكون فوق جميع الشعوب.. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك، لا تشفق عيناك عليهم» (تثنية من ٨ : ١٤، ١٦).

وفدوا إلى أرض العرب الكنعانيين ونازعوا أهلها ديارهم واغتصبوا أراضيهم ثم تضخمت أحلامهم المسعورة لامتلاك الأراضي المجاورة وإبادة أصحابها العرب فانطلقوا إلههم بما تراءى لخيالهم المريض «إن ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم.. أرسل هيبتي وأزعج جميع الشعوب الذين تأتي عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين.. وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر، فإني أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك» (خروج ٢٣ : ٢٣ - ٣١).

وتحدثت التوراة عن الحروب التي أمر بشنها الرب يهوه، القاسي المتكبر،

لإبادة الشعوب المجاورة وسلب أملاكها، تقول التوراة عن إحدى هذه المذابح التي ارتكبها الشعب المقدس بأمر إلهه: «فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتل كل ذكر، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم.. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبو جميع بهائمهم وجميع مواشيه، وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار، وأخذوا كل الغنيمة، وكل النهب من الناس والبهائم» (عدد ص ٣١ : ٧ - ١١).

وما فعلوه مع مديان، فعلوه مع شعوب كثيرة، سلب ونهب، وقتل وذبح، وهتك حرمات وانتهاك مقدسات، كل ذلك بأمر الله!.

ولكن يبدو أن أصحاب البلاد الأصليين وخاصة الفلسطينيون لم يصبروا على هذا العنت، فقد استطاعوا بعد صراع مرير أن ينتصروا على أبناء صهيون، وأن يستردوا منهم بعض ما اغتصبوه وأن يستعيدوا بعض كرامتهم وإنسانيتهم، وأن يذيقوا سفاحي الشعوب بعض قطرات من الكأس التي أسقوهم أياها من قبل.. هنا علا صراخ الشعب المختار وارتفع عويلهم ونحيبهم يستنجدون يهوه أن يرسل إليهم مسيحًا يخلصهم من أيدي الفلسطينين ويعيد إليهم جبروتهم وتسلطهم.

● **المسيح شاول:**

وينتظر اليهود طويلاً مجيء المخلص، حتى يظهر شاول من سلالة بنيامين أصغر أبناء يعقوب (إسرائيل) الاثنى عشر فيقود اليهود في حروبهم الاستعمارية ويحرز لهم انتصارات رخيصة فيسمونه المسيح المخلص، وتقول التوراة إلى الله أرسل صموئيل الكاهن ليمسح شاول ملكًا على اليهود ومخلصًا لهم من الفلسطينيين، يقول يهوه لصموئيل: «غدًا في مثل الآن أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين: فأمسحه رئيسًا لشعبي إسرائيل فيخلص شعبي من يد الفلسطينيين، لأني نظرت إلى شعبي لأن صراخهم قد جاء إلي» وتستطرد

النور، «فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس (شاول) وقبله وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً»[١].

وهكذا صار شاول ملكاً لليهود ومسيحاً مخلصاً لشعب إسرائيل.

● لقب المسيح:

ولكن من أين جاءت هذه التسمية؟ ولماذا دعي شاول أو غيره بلقب المسيح؟ وما الذي يعنيه هذا اللقب؟

الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى الشعائر التي درجت عليها الأمة اليهودية منذ أجيالهم الأولى، بل منذ أبيهم الأول يعقوب الذي سمي «إسرائيل» والذي من صلبه خرج جميع الأسباط الاثنى عشر الذين تكون منهم ومن أبنائهم يهود الدنيا، فمنذ عهد «إسرائيل» اعتبر المسيح بالزيت المقدس من أعظم شعائر التقديس والتكريم للناس وللأماكن، فكل ما يمسح بهذا الزيت يصير مقدساً لله، ولا يمسح بهذا الزيت المقدس من الناس سوى الكهنة والملوك والأنبياء، لذلك سمي هؤلاء مسحاء الله أي المختارين والمباركين من الله، يروي سفر التكوين عن يعقوب أنه «بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً، وصب زيتاً على رأسه، ودعا ذلك المكان بيت إيل.. أي بيت الله»[٢].

ويستطرد يهوه مذكراً شعبه بقيمة هذا الزيت المقدس الذي لا يمسح به سوى المباركين من الكهنة والملوك والأنبياء، محذراً إياهم من محاولة تقليده أو مسح الأجانب الأنجاس به، يقول يهوه: «لا يكون هذا لي دهناً مقدساً للمسحة في أجيالكم، على جسد إنسان لا يسكب، وعلى مقاديره لا تصنعوا مثله، مقدس هو ويكون مقدساً عندكم، كل من ركب مثله ومن جعل على أجنبي

---

(١) صموئيل الأول (٩: ١٥ - ١٦ ، ص ١٠ : ١).

(٢) تكوين ص ٢٨ .

يقطع من شعبه»[١].

● **المسيح هارون:**

ويعد أن تم صنع الزيت المقدس أمر الله نبيه موسى بأن يمسح به الهيكل والمذبح لتقديسهما ثم أمره بان يمسح به شقيقه هارون مسيحًا مقدسًا للرب، وفعل موسى حسبما أمره الله.. أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدسه، ونضح منه على المذبح سبع مرات وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها، وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه[٢].

● **المسيح اليشع:**

ويأتي بعد ذلك إيليا فيامره ربه بأن يمسح من بعده اليشع نبيًا على بني إسرائيل، يقول سفر الملوك على لسان الله لإيليا «وامسح اليشع بن شافاط.. نبيًا عوضًا عنك»[٣].

ثم يتوالى بعد ذلك المسحاء في تاريخ الشعب المقدس.

رأينا شاول أحد المسحاء الرواد يسمى مسيح الرب فهو المسيح المخلص الذي خلص إسرائيل من أيدي الفلسطينيين، المسيح المبارك الذي لا يمسه أحد بسوء، والذي لا يتجرأ أحد على إيذائه، يقول داود لرجاله محذرًا إياهم من التعرض للمسيح شاول «حاشا لي من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي المسيح الرب، فامد يدي إليه لأنه مسيح الرب هو».

وحين تملك أحد رجال داود من رقبة المسيحة شاول وأراد قتله منعه داود قائلاً: «لا تهلكه فمن ذا الذي يمد يده إلى مسيح الرب ويتبرأ»[٤].

---

(١) خروج (٣٠ : ٢٢ - ٣). (٢) لاويين (ص ٨: ١٠ - ١٢).

(٣) ملوك (١ : ص ١٩).

(٤) صموئيل الأول (ص ٢٤ : ٦ - ٨، ص ٢٦ : ٩).

وهكذا كانت عقيدة اليهود في المسيح، المختار من الله، والمبارك من السماء، منقذ إسرائيل ومخلص الشعب المقدس، لا يمسه أحد بضر، ولا يقربه أحد بأذى، يقول يهوه لشعبه «لا تمسوا مسحاء، ولا تؤذوا أنبيائي»[1].

● **المسيح داود:**

وبعد موت شاول «جاء جميع شيوخ إسرائيل .. ومسحوا داود ملكًا على إسرائيل»[2]، ويترنم المسيح داود سعيدًا بجعله مباركًا من الله، مختارًا لخلاص شعبه، والانتصار على أعدائهم. «الرب عزي وترسي، عليه اتكل قلبي فانتصرت، ويبتهج قلبي وبأغنيتي أحمده. الرب عزلهم وحصن خلاص مسيحه هو، خلص شعبك وبارك ميراثك، وارعهم واحملهم إلى الأبد»[3].

(مزمور ١٩).

ويقول عن نفسه أيضًا .. «أحببت البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك» (مزمور ٤٥ : ٧).

وينادي داود ربه في الحروب ويطلب منه النصر .. «يا رب إله الجنود، اسمع صلاتي وأصغ يا إله يعقوب، يا مجننا انظر يا الله والتفت إلى وجه مسيحك»[4].

فإذا ما حاقت به الهزيمة في إحدى المواقع، نادى داود ربه معاتبًا إياه على غضبه عليه «أنك رفضت ورذلت، غضبت على مسيحك»[5].

وفي الشدائد يرفع داود وجهه إلى الله طالبًا منه الاستجابة لتوسلاته «أيها الرب الإله لا ترد وجه مسيحك» (أخبار الأيام الثاني ص ٦ : ٤٢).

---

(١) أخبار الأيام الأول (ص ١٦ : ٢٢). (٢) صموئيل الثاني (ص ٥ : ٤).
(٣) مزمور (٢٨ : ٧ - ٩). (٤) مزمور (٨٤ : ٨ - ٩).
(٥) مزمور (٨٩ : ٣٨).

● المسيح سليمان:

وبعد موت المسيح داود، أتى ابنه المسيح سليمان ملكًا على اليهود، يحدثنا كتاب الملوك الأول عن كيفية مسح سليمان «فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان»[1].

وفي عهد داود وابنه سليمان عاشت إسرائيل عصرها الذهبي وازدهرت ازدهارًا لم يسبق له مثيل، ودخلت كثير من البلاد في طاعتها، وتسابق الملوك والأمم في خطب ودها، تقول التوراة «وكان سليمان متسلطًا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر»[2].

وفي عهد سليمان بنى هيكل الرب وكان معظمه من الذهب الخالص والأحجار الكريمة.

● عقيدة المخلص:

ويبدو أن دوام الحال من المحال، أو أن يهوه قد نسي وعده لشعبه المختار بإبقائه متسلطًا على البلدان المجاورة مستعبدًا شعوبها مستنزفًا خيراتها، أو يبدو أن إله الشعوب المجاورة قد أراد أن ينتقم من شعب يهوه وأن يذيقه بعض ما ذاقت شعوبه على يديه من الذلة والخسران، فقد ذهب داود وسليمان وحل بعدهم على اليهود الهوان، وهاجم بختنصر ملك بابل - العراق الآن - إسرائيل في عام ٥٨٦ق. م وجاس خلال فلسطين، ودخل أورشليم وحمل اليهود سباياه إلى بلاده.

ونترك للأستاذ الأديب السحار وصف ما حل بالشعب المختار على يد ملك بابل.

---

(١) ملوك الأول (ص ١ : ٣٩).   (٢) ملوك الأول (ص ٤ : ٣١).

اندفعت عربات بابل الحربية في طرقات أورشليم كالسهم، وانقضت على بني إسرائيل انقضاض الصواعق، ودارت في الشوارع المؤدية إلى هيكل سليمان معارك بالسيوف والسهام، ولما كانت قلوب بني إسرائيل هواء قد طار منها الإيمان فقد خر الرجال أسرى أو لاذوا بالفرار. وسقطت المدينة الحصينة في قبضة بختنصر، فأحرق الهيكل وجمع التوراة وأشعل فيها النيران بعد أن غنم كل ما كان في بيت المقدس، واحتمل معه سبايا بني إسرائيل. وزحف جيش بختنصر على مملكة يهوذا، ودار القتال في السامرة بين أهل بابل واليهود، وسرعان ما خرت اليهود ساجدة تحت أقدام ملك الكلدانيين، ونظر بختنصر إلى سبايا بني إسرائيل وشرد بفكر، ثم أمر أن يجعلوا ثلاث فرق، فلما تم تقسيمهم أقر ثلثا بالشام وثلثا سبي وثلثا أعمل فيهم القتل، وانطلق بالغنائم والأسرى إلى بابل»[1].

ويغلب أن هذا الانكسار المخزي قد أطار ما بقي لليهود من ذرات العقل، وجدد أحلامهم وأوهامهم في المسيح المخلص، الذي يرسله الرب لتخليصهم من ربقة العبودية، وينقذهم من مذلة الاسترقاق، ويعيدهم إلى المدينة المقدسة «أورشليم» فليس من الممكن أن يتركهم يهوه هكذا عبيداً أذلاء للبابليين، بل لابد أن يرسل إليهم مسيحًا يخلصهم من أعدائهم، ويستعيدون به أمجادهم.. وكثرت الأقاويل والنبوءات والأساطير والأشعار حول هذا المسيح المخلص، شكله وأوصافه، سلالته وأعماله، وقت مجيئه، وطريقة عمله، كيفية انتصاره.. وغير ذلك من سجاياه.. أقاويل وأساطير ونبوءات وأحاجي، نسج الخيال لحمتها وسداها وحاك الضيق خيوطها وسواها.

● المسيح الكافر:

وطال باليهود العذاب والانتظار لمجيء المخلص إلى أن أتى قورش المجوسي

---

(١) عبد الحميد جودة السحار (وعد الله وإسرائيل ٢٢ - ٢٣).

ملك الفرس - إيران حاليًا - ومؤسس الامبراطورية الساسانية في فارس فحارب البابليين وهزمهم وفك أسرى اليهود في بابل. وسمح لهم بالعودة إلى القدس وإعادة بناء هيكل الله، فهلل اليهود بالفرح وعمتهم الغبطة والحبور، واعتقدوا أن كورش الوثني هو المسيح المخلص الذي أرسله يهوه لإنقاذهم من أيدي البابليين، فأطلقوا عليه لقب المسيح، فهو مسيح الله الذي أمسك الرب بيمينه ليدوس به الأمم ويحطم الملوك، يقول نبيهم أشعياء عن المسيح قورش «هكذا يقول الرب لمسيحه لقورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس به أممًا وأحقاء ملوك، لأفتح أمامه المصراعين والأبواب المغلقة»[1].

وما هي إلا فترة ينعم فيها اليهود بشيء من الرخاء والحرية، وقبل أن يستبد بهم شيطان الغرور والتسلط، يدهمهم سلطان الامبراطورية الرومانية الزاحف، فيفتح الغزاة بلادهم ويطوونها تحتهم مستعمرة رومانية ضئيلة يقطعون أوصالها أجزاء وأشلاء، يمنحونها لقوادهم وضباطهم إقطاعيات صغيرة يتحكمون في أرضها وأهليها، يقتلون الرجال ويستحيون النساء، ويحسبون على الناس كلماتهم وألفاظهم، وحركاتهم وسكناتهم، بل يعدون عليهم الأنفاس والخلجات. يروي فالتون أورسلر جانبًا من الصورة التي كان يعيشها اليهود أثناء حكم الرومان «كان الخطر حقيقيًا، فإن جواسيس الرومان منتشرون في كل مكان، ومن الجنون المطبق أن يتناقش الناس في الشؤون السياسية، فقد طالما ساق جنود الرومان المتحدثين إلى العذاب والموت، حتى تعلم الناس ألا يعلنوا آراءهم أبدًا، وقد اندلعت في القرن الأخير ثورات كبيرة، ولا يزال من المواطنين مئات يعيشون في جبال الجليل وتلاله ليتصيدوا الرومان حيثما استطاعوا، ثم لم تبرح الأمة تدفع ثمن كل هذا غاليًا، فكم من خيرة الشبان لاقوا حتفهم في تلك الثورات الهزيلة المقضي عليها مقدمًا وكم أعدم الرومان آلافًا ليكونوا عبرة لغيرهم، حتى أقفرت البلاد من شبانها، ومع ذلك فلا يزال

(١) أشعياء (ص ٤٥ / ١).

الرومـان هناك، ليس في الجليل وحـده حـيث الناصـرة أكـبـر بلد، ولكن في اليهودية وفي «أورشلـيم» العاصمة الذهبيـة وفي كل الأقليم الواسع الذي عرف أمجـاد «يوشع» وقـوة «داود» وحكمة سليـمان» وأبهـته، إنه الآن يدفع الجـزية صاغرًا للامبراطور «أوغسطس قيصر»(١).

• المسيح عيسى:

وهكذا تجددت باليهود الأحلام والأوهام في ظهور مسيح جديد يخلصهم من ربقة الرومـان ويعيد إليهـم حريتهم ومجـدهم الغابر، ويحقق لهم وعـد إلههم يهوه، بجعلهم العنصر المميز بين الشعـوب، وبإقامة الامبراطورية الأرضية التي عاصمتها أورشليم، وبتسخير باقي شعوب الأرض لخدمتهم.

تجددت بالـيهود الأحـلام والأوهام، وكثـرت الأقاويل والتكهنـات وتعددت الأساطير والأقاصـيص عن هذا المسيح المخلص، بعضها يصـوره ملكًا من كبار الملوك الغـابرين قام من الموت ليـخلص شعـبه كـالملك داود أو حزقـيا أو يـهو شافاط، وبعـضها يصوره نبيًـا من الأنبياء كالنبي إيليا أو إلـيشع بعث من موته لخلاص شعبه، وبعضها يراه من سلالة داود، وآخرون وآخرون . . . .

يقول الأستاذ فـتحي عثمان : «كان الشعور العـام ينتظر ظهور «المسيح» من نسل داود كقائد شعبي كبير يستخدم المعجزات والخوارق للانتصار على الأعداء، وكان الـبعض ينتظر من «المسـيح» صراعًـا دمويًا . . وجـاءت كتـابات «الرؤى الرمزية» تعكس هذه المشاعـر والآلام، لقد كتبت لتشجع قـومًا في شدة الضيق والمتاعب فهي تصور لأحـلامهم قضاء قريبًا سريعًا على الشـر، وسعادة ومجدًا للمؤمنين»(٢).

كانت أكثر الأحاجي انتـشارًا في ذلك الوقت أن المسيح المخلص سوفي يأتي

(١) فالتون أورسلر «الإنسان الخالد» ترجمة رمسيس جبراوي ص ١٣ .

(٢) فتحي عثمان : مع المسيح في الأناجيل الأربعة ص ٦٠ .

من ذرية داود وينتصر انتصاراً سريعًا حاسمًا على الأعداء ، ويحرر إسرائيل ويتخذ أورشليم عاصمة لملكه، ويضم الناس جميعًا تحت لواء سلطانه، ليؤمنوا بيهوه وبالشريعة اليهودية.

وهنا يثور التساؤل . . لماذا يأتي المسيح المنتظر من نسل داود بالذات؟ والجواب أن اليهود ما زال يتراقص أمام أعينهم العصر الذهبي الذي عاشوه أيام داود وسليمان، حين تعاظم داود وسليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والقوة وحين كانت الأرض كلها ملتمسة وجه داود وسليمان، وحين خضعت لليهود الأمم والشعوب، ودانت لهم الجباه والرقاب، بل ما زال اليهود يذكرون وعد يهوه للمسيح داود بأن يثبت كرسي مملكته إلى الأبد، مبقيًا سلالته ملوكًا على عرش إسرائيل، يقول كتاب صموئيل الثاني عن داود «هكذا قال رب الجنود: أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسًا على شعبي إسرائيل وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وجعلت لك اسمًا عظيمًا كاسم العظماء الذين في الأرض، عينت مكانًا لشعبي إسرائيل وغرسته فسكن مكانه ولا يضطرب بعد. . والرب يخبرك بأن الرب يصنع لك بيتًا متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك، أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبت مملكته، هو يبني بيتًا لأسمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد»[١].

ويؤكد يهوه لسليمان وعده الذي وعد به داود أباه «إني أقيم كرسي ملكك على إسرائيل إلى الأبد وكما كلمت داود أباك قائلاً: لا يعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل»[٢].

هكذا كان حال اليهود، كلما حلت ببلادهم المتاعب وصادفتهم الأهوال، واستباحهم الغزاة واستعبدهم الفاتحون، كانوا يستصرخون يهوه أن يرفع عنهم

---

(١) صموئيل الثاني (ص ٧ : ٨ - ١٣). (٢) ملوك الأول (ص ٩ : ٣ - ٥).

العذاب، ويزيل عنهم المذلة ويبعث إليهم بطلاً مغوارًا، ومسيحًا مختارًا، يخلصهم من أعدائهم، ويرد إليهم شكوتهم ومنعتهم.

والواقع أن هذه الأحلام والآمال التي كانت تراود اليهود في أوقات الضيق كانت ترددها أيضًا معظم الديانات الغابرة، وكانت تراود معظم الشعوب القديمة، خاصة في أوقات الكوارث والنكبات، فهي وسيلتهم للتنفيس عما يعانونه من الكروب والضيقات، وهي أملهم في النجاة والفرج ينسجونها أساطير تخفف من ألم الواقع، وأوهامًا تلطف من قسوة الحقيقة، وأحلامًا ترطب من لهيب الظروف.

يقول الأستاذ العقاد: « . . يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل، وظهر من عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة في الأمريكتين، وليس في هذا عجب، لأن الرجاء في الخير أصل من أصول الديانة، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية في طلب الكمال والخلاص من العيوب، وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه، فكان المصريون الأوائل يترقبون المخلص المنقذ بعد زوال الدولة القديمة . . وكان البابليون يؤمنون بعودة مردخ إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث في جسد إنسان»[١].

ويعترف الكاتب الأمريكي فالتون أورسلر أن فكرة المسيح المخلص ما هي إلا أسطورة يهودية ترددها معظم الشعوب القديمة، فيورد هذه الحقيقة على لسان صموئيل أحد أبطال قصته ردًا على يوسف النجار زوج مريم «ألا ترى يا يوسف أن هذا كله ما هو إلا أسطورة قديمة رويت بكل اللغات، وتعلمها كل الديانات

---

(١) عباس العقاد: (حياة المسيح ص ٢٨).

السخيفة، وقد يصح القول أنك تتكلم عن الهندوس في الهند، أو عن الإيرانيين في فارس أو عن اليونانيين.. ألا ترى أنك قد أسست قرارك على قصة خرافية، إنك تؤمن بخرافة عالمية»[1].

كان صموئيل هذا يدعو يوسف النجار إلى المشاركة في تحرير بلاده من مهانة الاستعباد، ولكن يوسف كان يؤمن بالخرافة العالمية، أن الله سيرسل إليهم مسيحًا مخلصًا يقضي على الرومان ويعيد إلى إسرائيل مجدها وسؤددها، فلماذا الجهاد والنضال؟ ولماذا التعب والمشقة فلننتظر فقط فرج الله!!

كانت هذه فكرة المسيح عند اليهود، بدأت بمسح الكهنة والملوك والأنبياء بالزيت المقدس، وتطورت خاصة في الضيقات والملمات إلى فكرة المخلص الذي يرسله يهوه لتحرير شعبه المقدس وإخضاع باقي الأمم والشعوب لهم، والفكرة بعد تطورها لم تكن إلا نوعًا من التنفيس عن الكرب الذي يحس به شعب مستعبد، ينتظر يوم الخلاص على يد بطل من أبطاله، ولا يخلو تاريخ شعب من الشعوب أو دين من الأديان القديمة من الروايات والأساطير التي حيكت حول الأبطال المخلصين والمسحاء المختارين، يصورونهم ملوكًا أو آلهة، أو أنصاف آلهة أو أبناء آلهة، قد ينزلون من السماء أو يخرجون من بطن الأرض، وقد تلدهم عذارى أو تلقي بهم عروس البحر، المهم أنهم أشخاص غير عاديين سيبدلون الحال حالاً، وسيحيلون العذاب هناءً، والذل عزًا، والضيق فرجًا، والحزن فرحًا.

• مولد عيسى:

في وسط هذه الظروف ولد عيسى، ولد في الوقت الذي كانت روما تدوس فيه أعناق اليهود بأقدامها، في عهد أكتافيوس الملقب بأغسطس قيصر امبراطور الرومان الذي امتد حكمه من سنة ٢٧ ق . م إلى سنة ١٤ ميلادية، حيث

---

(١) فالتون أورسلر: (الإنسان الخالد ص ٤٩).

كانت إسرائيل ولاية رومانية صغيرة ممزقة إلى مدن متفرقة يحكم كلاً منها والٍ أو أمير من قبل الرومان وقد يخلع عليه من قبيل التجاوز لقب ملك، ولد عيسى في مدينة صغيرة تدعى بيت لحم على بعد ستة أميال جنوبي العاصمة أورشليم، ولد من أم يهودية تدعى مريم كانت وقتئذ مخطوبة لنجار يهودي فقير اسمه يوسف، ونترك الأناجيل تحدثنا عن قصة ميلاد عيسى.

يقول إنجيل متى: «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس[1] فيوسف رجلها إذ كان رجلاً بارًا ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سرًا، ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلا: يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع، لأنه يخلص شعبه»[2] ويستطرد إنجيل متى في الأصحاح الثاني قائلاً . . «ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له، فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح: فقالوا له: في بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبي: وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل»[3].

ويؤكد الحواري لوقا أن عيسى هو المسيح المنتظر الذي سيخلص إسرائيل من أعدائها وسيجلس على عرش داود أبيه، وسيدخل الشعوب والأمم في طاعة الشعب المختار «ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب

---

(١) انظر معنى الروح القدس في كتاب «الله واحد أم ثالوث» للمؤلف - الفصل السابع. - نشر مكتبة النافذة

(٢) متى (ص ١ : ١٨ - ٢١).

(٣) متى (ص ٢ : ١ - ٦).

إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية»[١].

وتمضي الأناجيل في شرح كيفية ميلاد عيسى فتقرر أن أمه وضعته في اسطبل للبهائم ملحق بأحد الفنادق الريفية الصغيرة، وأن بعض الرعاة الوثنيين قد أتوا إلى مكان ولادته وسجدوا له وقدموا بعض الهدايا باعتبار أن المولود سيكون ملك اليهود، وأن ملك البلاد الحالي هيروديس المعين من قبل الرومان قد خاف واضطرب عندما علم بمولد الطفل، وخشي على ملكه الذي سيستولى عليه عيسى فأقام مذبحة قتل فيها جميع الأطفال الذين في بيت لحم وفي كل تخومها ظنًا منه أن الطفل عيسى ملك اليهود سيكون بينهم، ولكن مريم وزوجها يوسف كانا قد هربا بالطفل إلى مصر ولم يعودا إلا بعد موت هيروديس.

وتكثر الروايات والأقاصيص وتتشعب التفاصيل والفروع التي تتفق حينًا وتختلف أحيانًا بين الأناجيل، ويعنينا هنا معالجة أمرين: ميلاد عيسى من عذراء، ونسب عيسى.

● **ابن العذراء:**

تروي الأناجيل أن مريم حبلت بعيسى وولدته قبل أن تتصل برجلها يوسف وقبل أن تنجب من صلبه إخوة عيسى الآخرين، أي أن عيسى دون باقي إخوته، قد ولدته أمه وهي مازالت عذراء. ولقد اختلفت الآراء في حقيقة هذا الميلاد العذراوي، البعض يرونه أسطورة تكمل رواية المسيح المخلص فلطالما رددت الشعوب القديمة الأقاصيص والروايات عن الأبطال والآلهة الذين ولدوا عن عذراوات، فكان الفرس مثلاً يعتقدون أن زرادشت ولد من أم عذراء، وكان المصريون يعتقدون ذلك في رع، والصينيون في فوهي، والروم في أتيس وهكذا. . .

بل إن الأناجيل نفسها تحدثنا أن هذا الحادث قد جعل أقرب الناس إلى مريم

---

(١) لوقا (ص ١ : ٣٢).

وهو خطيبها يوسف يفكر في تركها عندما علم بموضوع حملها مما جعل مريم تكتم الخبر بعد ذلك على أعز الناس إليها . . وولد عيسى فعرفه الناس على أنه ابن يوسف النجار زوج مريم وتربى الولد وكبر وهو لا يعرف لنفسه أبًا غير يوسف، ولم تستطع مريم وزوجها التصريح لأحد بأن عيسى قد ولد قبل اتصالهما ببعضهما.

ومع ذلك فقد تناقل الناس أخبار حمل مريم قبل الأوان وترددت بينهم الأقاويل والشائعات، بعضها يرميها بأقذع الصفات فيتهمها بالفاحشة وبالحمل سفاحًا من أحد الغرباء أو الجنود الرومان، وبعضها يخفف من غلوائه ويلطف من قسوته فيؤكد أن مريم وخطيبها يوسف قد أرقهما الحب فتماسا قبل الأوان فكان حمل عيسى.

وكانت الرواية الأخيرة أكثر الروايات إشفاقًا على مريم المسكينة التي أقض مضجعها الحمل، وسهد ليلها وأضنى نهارها، ماذا سيقول الناس عنها؟ هل سيصدقون أنها حملت دون أن يمسها رجل؟ لا شك أنها رواية بعيدة عن التصديق، ومن دأب الناس في كل زمان ومكان الميل إلى تصديق الجوانب السيئة في الرواية، وترجيح جانب الدنس على جانب الفضيلة فيها. بل لقد رأى البعض أنها حتى لو حملت وما زالت عذراء، فكم من النساء حملوا وما زالوا عذارى، فقد يتصل الرجل بالمرأة ولا يفض بكارتها ولكنها تحمل منه، وقد تلبس الفتاة ثوبًا علقت به بعض الحيوانات المنوية، فينسل أحدها إلى رحمها ويحدث الحمل وهي لم تلتصق برجل، كل ذلك يحدث في الواقع مرات ومرات، وكل ذلك ثار في أذهان الناس عندما علموا بخبر حمل مريم، وكان كل حديث منها أقرب إلى التصديق من القول أن حملها كان بإرادة الله، بل كانت أكثر الروايات شيوعًا هي حملها سفاحًا من رجل أجنبي . . . كانت أقاويل الناس كالمدى تقطع من مريم الأحشاء وتمزق النفس، وكانت نظراتهم المتبجحة وضحكاتهم الساخرة عند مرورهم بها تسري كالسم الزعاف في

جسدها ودمائها، ولطالما تمنت الموت على الحياة وسط هذا الجحيم، فاعتزلت الناس هي ورجلها يوسف، وارتحلت من قريتها الناصرة إلى بلدة بيت لحم حيث لا يعرفها أحد ولا يسمع عنها أحد.

يقول ول ديورانت : «أما القصص التي أذاعها سلسس فيما بعد عن مريم وجندي روماني فالنقاد مجمعون على أنها افتراء سخيف، وأقل من هذا سخفًا تلك التي تذكر أكثر ما تذكر في الأناجيل المحذوفة عن مولد المسيح في كهف أو اسطبل، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه، وعن مذبحة الأبرياء، والفرار إلى مصر، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيرًا في هذا الشعر الشعبي . . ويلوح أن مولد المسيح من عذراء نشأ في عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود»[1].

وكم من الناس صدق الأكذوبة، وكم من الناس جعل نفسه بوقًا لإذاعتها، مريم حملت سفاحًا، وابنها عيسى ثمرة علاقة محرمة، وما زالت قصة ميلاد عيسى من عذراء محل استهزاء اليهود وتهكمهم، وما زالوا يعتقدون حتى الآن أن عيسى ولد من الفحشاء والدنس، وكم لمز اليهود عيسى في حياته ورموه بهذا الوصف، وتندروا عليه بهذه الضعة في مولده، قالوا له متفاخرين: «إننا لم نولد من زنا»[2]، أي إننا لسنا مثلك من أولاد الزنا بل إن لنا آباءنا الشرعيين، وليت الأمر اقتصر على اليهود، بل إننا نجد من المسيحيين أنفسهم من يتشكك في هذا الميلاد العذراوي، ومن يعرض عن ذكره تكذيبًا ونفيًا، يقول الدكتور بترسون سميث: «رأيت من اللائق أن أفرد فصلاً خاصًا لميلاد المسيح العذراوي الذي نجم عنه شيء من الريبة في بعض العقول، بل إنه خلال حياة المسيح لم يفكر أحد قط من التلاميذ أو خطر بباله ميلاده من عذراء، ذلك أن الأم العذراء التي حفظت جميع الأمور في قلبها تكتمت الأمر ولم تفشه إلا لنفر قليل من الأخصاء، وذلك لدقة الأمر وبعده عن التصديق، فعرف السيد المسيح بأنه ابن

(١) ول ديورانت : «قصة الحضارة» (جـ ٣ - ص ٢١٤).
(٢) يو (٨: ٤٠).

يوسف النجار خطيب العذراء مريم وقتئذ، والتاريخ يروي لنا كل الفريات المستقبحة التي أذاعها الناس عن مريم وقتئذ، حتى ارتاب خطيبها في طهارتها وعفتها، وأراد أن يخليها سرًا، وأخيرًا علم بالأمر ولكنهما تكتماه عن الجموع، وما كان يمكن أن يذيعاه في عالم مشبع بالشكوك والافتراءات التي لم يكن من الممكن أن تفهم ذلك الاختيار الفريد الفذ»[١].

وفي وسط هذه الترهات والشائعات التي جعلت ميلاد عيسى العذراوي مادة للتسلية والترويح والسخرية بعيسى وأمه، ووسيلة للتهكم والتقريع، كان يمكن للقرآن أن يؤيد شائعات اليهود، أو أن يسكت تمامًا عن قصة الميلاد العذراوي فلا يعد لها في التاريخ وجود، ويذكر الناس عيسى كما ذكروه دائمًا على أنه ابن مريم وزوجها يوسف النجار، ولكن الحق الصادر من لدن الرحمن يؤكد حقيقة الميلاد، يذكرها رغم تكذيب الكثيرين، يؤكدها ليرفع قدر عيسى وأمه ويدرأ عنهما ما لصق بهما من أوزار المنكرين.

يبدأ القرآن بذكر تبشير جبريل لمريم بغلامها الزكي، يقول سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا[١] فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[٢].

ثم يستطرد القرآن في ذكر الآلام النفسية التي تعرضت لها مريم بسبب الحمل وابتعادها عن الناس اتقاء ألسنتهم الجارحة ونظراتهم الوقحة، حتى أنها فضلت الموت على الحياة، ويذكر أقاويل الناس واقتراءاتهم، وتهكمهم وتقريعهم

---

(١) بترسون سميث: «حياة يسوع» - ترجمة حبيب سعيد ص ٢٤.

(٢) سورة مريم (١٦ - ٢١).

للعذراء المسكينة، يقول جل وعلا: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1].

هذا هو القرآن، حديث الرحمن، يرفع عن مريم وابنها مقالة السوء ويطهرها من الدنس والفاحشة، ويرفع عن ابنها نجاسة الأصل وسوء المنبت، يرفع مريم من درك الزانيات والبغيات إلى مرتبة الطهر والعفاف، بل إلى درجة القداسة والاصطفاء، يرفعها إلى أعلى المراتب بين نساء العالمين وهي التي رماها قومها بالسوء والدنس.

يقول الكتاب الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[2]. بل إن القرآن يجعل التقول على مريم بهذه الأكاذيب التي اخترعها قومها في درجة مساوية للكفر، فمن ينكر ولادة عيسى ابن مريم وهي عذراء فهو في مرتبة واحدة مع الكافر، لا ينفعه إيمانه، ولا يشفع لا دينه وإسلامه، يقول تبارك وتعالى عن اليهود أعداء الحق: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾[3]، فالتقول على مريم بهتان وكذب، والخوض في عرضها الشريف إثم وكفر، يستحق فاعله عذاب الجحيم.

هذا هو الميلاد العذراوي لعيسى، ينفيه الكثيرون ويتندر به الكثيرون، ويتشكك فيه الكثيرون ويخشى ذكره الكثيرون، حتى كتاب الأناجيل أنفسهم لم يشر إليه منهم سوى متى ولوقا، أما الباقون فيعرضون عن ذكره، حتى بولس

---

(١) جبريل عليه السلام.

(٢) سورة مريم (٢٢ - ٢٨).

(٣) سورة آل عمران (٤١).

رسول المسيحية ويوحنا حبيب عيسى لا يذكران شيئًا عن هذا الميلاد، وكأنه شيء يخشى الخوض فيه أو الحديث عنه، مخافة السخرية والتهكم، أو مخافة الظن والشكوك. ولكن القرآن حديث الرحمن، لا ينطق إلا بالحق للناس أجمعين، فيذكر الميلاد العذراوي لعيسى ويتعرض له ويخوض فيه ويؤكده، ويقضي على الشائعة وعلى الشكوك ويلقم المستهزئين والمتهكمين حجرًا، بل إن القرآن ذكر لعيسى معجزة حدثت عند مولده لا تقل في روعتها عن معجزة ميلاده من عذراء، معجزة لم يرد لها ذكر في كل الأناجيل، تلك هي معجزة حديث عيسى إلى الناس بمجرد ولادته، وهو ما زال في المهد طفلاً لم تمض على ولادته ساعات، حديث أنطقه به الله ليؤكد براءة أمه وخلو ساحتها، وليدفع عنها ألسنة السوء وسياط التقريع. أتت مريم تحمل ابنها فقابلها الناس كالجلادين.. من هذا؟ وابن من هذا؟.. ومن أين أتت به؟ و من أي رجل حملت به ؟ وفزعت مريم وتلفتت حولها فلم تجد أحدًا تستنجد به غير هذا الرضيع الذي يعرف الحقيقة كلها ولكنه لا ينطق، فأشارت إليه في يأس واستكانة، فأنطقه الله بالحقيقة، يقول سبحانه ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا** ﴾[١].

هذا هو القرآن، حديث الحق من لدن الرحمن، يؤكد معجزة الميلاد، ويذكر أيضًا حديث الميلاد، ويقضي على شائعات اليهود، ويمحو تشككات المسيحيين، ويجعل مريم وابنها آية للعالمين، ولو كان من عند غير الله، لشايع هؤلاء وهؤلاء، أو لغفل عن هذا وذاك، ولترك الكذب يقضي على الصدق كما يحدث كثيرًا، ولكن الحق تبارك وتعالى ينصر الصدق في النهاية ويقضي على الكاذبين.

---

(١) سورة مريم (٢٩ - ٣٢).

• نسب عيسى:

قلنا إن عيسى ولد في وقت كانت فيه إسرائيل مستعمرة رومانية صغيرة، مقطعة الأوصال مهيضة الجانب، مذلولة الكرامة، تستصرخ ربها يهوه أن يرسل إليها مسيحًا يخلصها من عبودية الرومان ويعيد إليها مجد داود وذهب سليمان.

ولد عيسى وسط هذه الآلام والآمال، وحاول كتاب الأناجيل أن يلقوا في روع الناس أن عيسى هو المسيح المنتظر، المسيح الجديد، الذي أتي ليخلصهم من عبودية روما ويعيد إليهم مجدهم الضائع، وتهافت كتاب الأناجيل على استدعاء آيات العهد القديم، واستنطاق أنبيائه قسرًا، وتحوير الكلمات والروايات التي تحدثت عن المسيح المنتظر ليكون المقصود بها عيسى، وتعديل الأوصاف والأشكال التي قيلت عن المسيح لتصدق على عيسى، بل شكلوا عيسى نفسه ليوضع في قالب المسيح المخلص. ولقد سبق أن ذكرنا أن أكثر النبوءات شيوعًا عن المخلص الذي سيرسله الله لتحرير إسرائيل أنه سيكون من سلالة داود، ملك العصر الذهبي لليهود، من أجل هذا قرر كتاب الأناجيل أن عيسى من سلالة داود، وأجبروا مريم في صحفهم على أن تترك بلدتها الناصرة وتذهب إلى مدينة بيت لحم التي كانت منبت داود لتلد فيها عيسى.

ولكن هؤلاء الكتاب قد وقعوا هنا في مأزق عجيب، بل وفي تناقض صارخ، فبينما يقررون أن عيسى ولد من مريم دون أن يمسها رجل، يعودون فيقررون - جريًا وراء أسطورة المسيح المخلص - أن عيسى من نسل داود، ولو كان عيسى ينتسب إلى داود من جهة أمه مريم لكان أمرًا من الممكن قبوله، أي لو كانت مريم من ذرية داود لكانت نسبة عيسى إلى داود أمرًا مفهومًا، ولكن الدهشة تعلو وجوهنا عندما نراهم يربطون بين عيسى وداود عن طريق يوسف النجار. يقول الحواري متى عن نسب عيسى: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم، إبراهيم ولد إسحق، وإسحق ولد يعقوب، يعقوب ولد يهوذا إخوته، ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار.. ويعقوب ولد يوسف رجل مريم

التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً، ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً»[١].

ويتحدث لوقا أيضًا عن نسب عيسى رابطًا بينه وبين داود عن طريق زوج أمه يوسف النجار، يقول لوقا إن مريم كانت مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف . . ثم يستطرد لوقا فيؤكد أن عيسى سيخلف جده داود على عرش إسرائيل، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية[٢].

هكذا ربطوا بين عيسى وداود برابطة الدم والقرابة، وجعلوا أولهم فرعًا للثاني وخارجًا من صلبه، كل هذا عن طريق رجل تؤكد الأناجيل أنه لم يمس مريم أثناء حملها بعيسى، ولم يضاجعها إلا بعد مولده، فكيف يسوغ هذا في العقل والمنطق؟ الواقع أنهم قد وقعوا هنا في مأزق خطير، لقد أرادوا أن يلبسوا عيسى ثوب المسيح المنتظر فخلعوا عليه كلية أوصافه ولم يبق إلا أن يكون عيسى من نسل داود، ولما كانت مريم أم عيسى ليست من نسل داود فلم يكن بد من أن يربطوا بينها وبين رجل من سلالة داود هو يوسف، ربطوا بين مريم ويوسف برباط الحب والخطبة، وجعلوا من يوسف خطيب مريم أبًا لعيسى وأصلاً له، فعلوا ذلك في الوقت الذي اختارت فيه السماء مريم لتلد إحدى معجزات الله، فشوهوا بذلك من قيمة المعجزة، وجعلوا مريم تنشغل بخطيب ظنه الناس عاشقًا ورفيقًا، بل تمادوا فجعلوا يوسف والد عيسى، كل ذلك ليكون عيسى ابن داود. والواقع أنهم بجريهم وراء أسطورة المسيح المخلص ومحاولتهم خلع لباس المسيح على عيسى، قد جردوا عيسى ابن العذراء من ميزته الكبرى ومعجزته العظمى، جردوه من حيث لا يشعرون من معجزة ميلاده دون زرع رجل، بل وصموه وأمه دون أن يشعروا بأشنع الأوصاف وأحط الاتهامات، فسايروا بذلك

(١) متى (ص ١: ١ - ١٧).
(٢) لوقا (ص ١ :٢٧ ، ٣٢ - ٣٣).

افتراءات أعدائه عن دنس مولده وفحش أمه. هكذا فضلوا الأسطورة على الحقيقة، فضلوا أسطورة المسيح ابن داود على حقيقة عيسى ابن العذراء، جعلوا عيسى المسيح بن يوسف ابن داود، ورفضوا أن يكون عيسى المبارك صاحب الميلاد المعجز الفريد.

وفي رواياتهم عن نسب عيسى نرى بعضهم يقرر أن يوسف والد عيسى بن يعقوب، بينما يقرر البعض الآخر أن يوسف ابن هالي وليس ابن يعقوب، وخلاف آخر نراه بينهم حول الجد التالي لعيسى من أبناء داود أهو سليمان أم ناثان، فنرى البعض يذكر أن عيسى من أبناء سليمان بن داود، بينما يذكر آخرون أن عيسى من أبناء ناثان وليس سليمان، وعند سرد الأجيال التي انقضت بين زمن عيسى وزمن داود يقرر البعض أنه مر منذ زمن عيسى إلى داود ٢٦ سنة وعشرون جيلاً بينما يذكر آخرون أن بين الاثنين واحدًا وأربعين جيلاً.

قلنا إن الربط بين عيسى ويوسف وداود برابطة القرابة وإن كان قد خدم القول بأن عيسى هو المسيح المنتظر إلا أنه هدم معجزة ميلاد عيسى الفريد، وهذا ما دعا الكثيرين إلى إغفال ذكر حادث الميلاد لما أحاط به من شبهات وافتراءات، بل إن الكثيرين من تلاميذ عيسى اللصيقين به لا يعرفونه بأنه ابن يوسف. يروي الحواري يوحنا محاورة جرت بين اثنين من التلاميذ كانا يتحدثان عن عيسى يقول يوحنا: إن «فيلبس وجد نثنائيل وقال له : وجدنا الذي كتب عن موسى في الناموس والأنبياء، يسوع بن يوسف الذي من الناصرة»[1].

وعرف الجميع عيسى على أنه ابن يوسف، شقيقًا لإخوته الآخرين أبناء النجار ومريم، يقول متى «ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا، وقالوا: من أين لهذا هذه الحكمة والقوات؟ أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم؟ وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا، أو ليست

---

(١) يوحنا (ص ١ : ٤٤ - ٤٥).

أخواته جميعًا عندنا؟»[١].

طمسوا معجزة الميلاد سعيًا وراء أسطورة قديمة .. قضوا على عيسى ابن العذراء ليقيموا المسيح ابن داود، مخلص إسرائيل وباعث مجدها، ولو كان ابن النجار مطعون النسب سيء المنبت، قضوا على ابن العذراء وأعطوا أعداءه سهامًا ومدى ينهشون بها عرض أمه البتول، ورفض أغلبهم ذكر شيء في إنجيله عن معجزة الميلاد وكأنها عار أو فضيحة يجدر إبقاؤها في طي الكتمان، وحتى من ذكر المعجزة منهم فإنه كان في سردها أقرب إلى الشك منه إلى اليقين، مما أزكى لهيب الشائعات فاندفعت تنتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، وتساءل الناس أحقًا عيسى ابن العذراء كما يدعي البعض؟ أم أنه ابن يوسف؟ هل ولد عيسى حقًا بغير أب؟ وضحك الناس، استهزؤوا بالمعجزة وكأنها خرافة وضرب من الخيال، ومالوا إلى تصديق الشائعات والأكاذيب التي كان أخفها وقعًا القول بأن يوسف قطف الثمرة قبل الأوان، وضاجع مريم قبل الزواج، فولدت عيسى ونسبته إليه.

ومرت الأيام ونسي الناس الحقيقة وسط الترهات، وتمسكوا بالأكاذيب والشائعات، وضاعت في اليم معجزة الميلاد، إلى أن نزل القرآن فأعلن الحقيقة، وقطع دابر الشكوك وأعاد لمريم عفافها وطهارتها، وأعاد لعيسى قدره واحترامه، ولولا القرآن لاندثرت رواية الميلاد، ولعدت من الأباطيل والخرافات التي ترددها الأديان الوثنية القديمة ولما صدقها أحد، ولكنت أنا أول المكذبين.

* * *

---

(١) متى (ص ١٢ : ٥٤ - ٥٦).

الفصل الثاني

شباب عيسى

• الصبي يسوع:

بعد تبشير الملاك لمريم بغلامها الزكي حملت به، وظل ينمو في بطنها جنينًا طوال تسعة أشهر كاملة، مر فيها بكل الأدوار التي يمر بها سائر الأجنة، أخذ من لحمها لحمًا، ومن عظمها عظمًا، ومن دمها دمًا[١]. ومن روحها وأعصابها وأنفاسها وكل شيء فيها، حتى اكتملت أشهر الحمل، وحان وقت الوضع، وجاءها المخاض فلفظته ليقابل الحياة.

يقول لوقا عن مريم ويوسف والمولود «وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر، وقمطته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل»[٢].

ولد عيسى طفلاً كسائر الأطفال، يصرخ جوعان فتلقمه أمه ثديها، ويبكي ضجران فتهدهده في حجرها، يغوط ويبول فتغسله وتنظفه، وتزيل عنه اتساخه وتعيد إليه هندامه، وتقمطه وتكسوه، يمرض أو يتوعك فتهرع إلى الأقارب والأحباب تسألهم الدواء وتستشيرهم العلاج، ينام فتضجعه في مذود البقر وتسهر إلى جواره، تحرسه وترعاه هي وزوجها يوسف.

وحين أصبح عيسى ابن ثمانية أيام ختن كما يختن سائر الأطفال، وقطعت لحمة غرلته تنفيذًا لعهد الله مع إبراهيم بأن يختن كل ذكر في لحم غرلته وأن

---

(١) انظر التوراة سفر التكوين.

(٢) لوقا (ص ٢ : ٥ - ٧).

يحفظ هذا العهد في شعب إسرائيل إلى الأبد، يقول لوقا عن ختان عيسى. . «ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع»[١].

وبعد أن تطهرت مريم من طمثها، وانتهت أيام نفاسها، حرصت ورجلها يوسف اليهوديين الصالحين على أن يقدما ليهوه إله إسرائيل الذبائح والمحرقات، حمدًا وعرفانًا له على ما رزقهما من حسن الولد، كما حرصا على تنشئة الصبي ليكون إسرائيليًا حقيقيًا حسب الناموس والشريعة فقاما بتهويده ونذره مقدسًا للرب باعتباره ابنهما البكر، يقول الحواري لوقا: «ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى (أربعين يومًا) صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب كما هو مكتوب في ناموس الرب (شريعة إسرائيل) إن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسًا للرب. ولكي يقدموا ذبيحة كما قيل في ناموس الرب زوج يمام أو فرض حمام»[٢].

ومع مرور الأيام والسنين أخذ جسد عيسى يكبر، وأخذ عوده يشتد وعقله ينمو وقلبه يتفتح للحياة، يقول عنه الحواري لوقا: «أما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس»[٣]. ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أصبح بحسب الشريعة اليهودية بالغًا «جادول» وصار يعامل معاملة الرجال، فكان عليه أن يختار مهنة، ففي هذه السن ينبغي لكل يهودي أن يحترف حرفة، وكان يخرج مع أبيه يوسف إلى حانوته، فهوى النجارة وتدرب عليها واتخذها حرفته، كان يعمل في حانوت والده المتواضع بكل جد واجتهاد من شروق الشمس إلى غروبها، فإذا جاء الليل أو حل يوم العطلة «السبت» ذهب إلى المعبد يطالع الشريعة الإسرائيلة ويسبر أغوارها على يد الأحبار والكهان.

وكان على كل يهودي أن يذهب إلى أورشليم -مرة كل سنتين للحج وذلك وقت عيد الفصح، العيد الأكبر لليهود، ذكرى خروجهم من مصر مع موسى

(١) لوقا (ص ٢ : ٢١).

(٢) لوقا (ص ٢: ٢٢ - ٢٤).

(٣) لوقا (ص ٢ : ٥٢).

وتخلصهم من عبودية فرعون وقومه، ولكن أبوي عسى الإسرائليين الحقيقيين كانا يحجان كل سنة، وكان يأخذان معهما ولدهما عيسى حتى يتشرب منذ نعومة أظفارة حب الشريعة وتقديس الناموس، وفي إحدى المرات التي ذهب فيها الأبوان مع ولدهما للحج، وبعد إتمام مراسيمه وإنهاء طقوسه، تأهب الوالدان للعودة، ولكن الصبي النابه انسل من بينهما وعاد إلى الهيكل يلتمس مزيداً من العلم والدراسة، تاركًا والديه في جزع وهلع، يقول الحواري لوقا: «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد، وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما، وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسًا بين المعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراه اندهشا وقالت له أمه: يا بني لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين. . ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعًا لهما»[1].

ويتحدث الروائي فالتون أورسلر عن عذاب الأم الحنون والأب المسالم وما كابداه من حزن وضيق خلال الأيام الثلاثة التي غاب فيها عنهما ولدهما الصغير دون أن يعرفا مكانه، ومقدار الخوف والفزع الذي ألم بهما خشية أن يكون قد أصابه مكروه، هذا بينما عيسى منشغل في دراسة الديانة الإسرائيلية مع أحبار اليهود، يقول أورسلر «ولم يحس (يسوع) ولا أحس متتبعوا هذه المناقشة المثيرة بمضي الوقت الطويل حتى رأى يسوع من فوق رؤوس الجالسين من حوله وجه (مريم) المصفر وقد لمع في عينيها عتاب وانهمرت منهما الدموع، وكانت هذه هي المرة الأولى بل المرة الوحيدة التي بدا عليها أنها لم تكن تتفاهم معه بروحها إذ قالت:

(١) لوقا (ص ٢ : ٤١ - ٥١).

ولدي. لماذا فعلت هذا بنا؟ لقد كنا - والدك وأنا - نبحث عنك طوال الوقت متوجعين؟ وودع يسوع العلماء والأساتذة ورأى أنه - حتى الآتين أخيراً منهم - قد بدا عليهم الإجهاد . . ولف على كتفي والدته العباءة العميقة الزرقة التي كانت تلبسها، وأمسك بيدها إلى الخارج، وروت له ما كان من أمرها «ويوسف» ثم عاد يسوع إلى بنوته لهما فوراً فاندفع يعانق أمه، وقبل لحية أبيه الذهبية التي بدت فيها شعيرات أخذت تحيلها رمادية، وانتهت فترة قلقهما، وأقبل شباب يسوع طيعًا لهما، ورأياه يتقدم نحو الرجولة، وينمو في الحكمة والنعمة عند الله والناس»[1].

وعندما بلغ عيسى الثامنة عشرة من عمره توفي أبوه يوسف، فأصبح العائل الوحيد لأمه وإخوته باعتباره الابن الأكبر، وكان عليه أن يواصل العمل في حانوت والده ليطعم هذه العائلة الصغيرة ويسد حاجيات أفرادها من الغذاء والكساء، فظل يكدح بالمنشار والمسحاة طوال النهار من أجل العيش، فمن لا يعمل لا يأكل، ومن لا يأكل يموت.

ولما صار ابن الثلاثين ذهب إلى نهر الأردن، حيث ابن خالته يوحنا، النبي الحصور، يعمد الناس لغفران الخطايا، وطلب عيسى من يوحنا أن يعمده وأن يغسل جسده في مياه نهر الأردن، ليصير أشد طهراً وصلاحًا، فعمده يوحنا كما عمد باقي الشعب، يقول لوقا: «ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضًا»[2].

عاش عيسى منذ مولده حتى بعثه في سن الثلاثين إنسانًا عاديًا، طفلاً خاضعًا لوالديه يطعمانه ويكسوانه، وصبيًا صغيراً يربيانه ويعلمانه، وشابًا يافعًا ينصحانه ويرشدانه، تصقله الأيام وتحنكه التجارب، ويتعلم النجاح والفشل، لم يحدث في حياته طوال هذه الفترة شيء غير عادي، خلا معجزة ميلاده الفريد،

(١) فالتون أورسلر - الإنسان الخالد - ص ١١١ .
(٢) لوقا (ص ٣ : ٢١).

ومعجزة نطقه في المهد ليدفع عن أمه قالة السوء، ميلاده الفريد الذي أخفاه أهله وكذبه أصحابه، ونطقه في المهد لحظة ميلاده ليصد الشائعات ويناوئ الترهات، خلا هاتين المعجزتين لم يكن لعيسى حتى سن الثلاثين ما يجعله غريبًا عن باقي الناس، أو شاذًا عن سائر البشر، نطق عيسى في مهده مرة واحدة لحكمة أرادها الرحمن ثم توقف بعد ذلك عن النطق، وعاد كسائر الأطفال لا ينطق ولا يتحدث، حتى حان موعد نطقه العادي فنطق كالباقين وهكذا في سائر أطوار حياته، وكافة مراحل نموه، طفل وصبي وشاب، لم يحدث له طوال تلك الفترة حادث يرفعه عن مرتبة الآدميين، أو يشتم منه خروجه عن فطرة البشر العاديين، أو حتى بلوغه مرتبة الأنبياء أو الأولياء.

ولو تصورت مريم أو زوجها وأقاربها أن في عيسى شيئًا ينأى به مرتبة البشر، لما أعادت وزوجها الاتصال ببعضهما لإنجاب المزيد من الأبناء والبنات أخوة عيسى، ولنفرت من زوجها يوسف ولترفعت عنه، فهي أم إله وليست أم إنسان، وأم الإله لا تلد الأناسي، ولا تعاشر الرجال، ولا تنجب الأطفال، ولكن مريم الإنسانة أم عيسى الإنسان عاودت الحمل والولادة من زوجها يوسف، وأنجبت له بنين وبنات، كانوا وعيسى قرة عين والديهم.

يروي لنا الحواري مرقس أن عيسى لم يكن يعرف بين مواطنيه إلا بمهنته، وبأمه وأخوته، فهو النجار الشاب ابن مريم، وأخو يعقوب ويوسى والآخرين، ويورد مرقس قول الجموع عن عيسى «أليس هذا هو النجار ابن مريم، وأخو يعقوب ويوسى، ويهوذا وسمعان؟ أو ليست أخواته هنا عندنا»[١].

• مسرات عيسى:

في حديثنا عن شباب عيسى يجمل بنا أن نذكر شيئًا عن لهوه وسروره، وساعات فرحه وسعادته، هل كان عيسى زاهدًا منسحقًا، عازفًا عن الحياة،

---

(١) مرقس (ص ٦ : ٣).

كارهًا للمرح والسرور؟ أم كان بشوشًا ضاحكًا محبًا للحياة، مقبلاً عليها؟ لقد حلا للبعض تصوير عيسى بصورة الرجل المتبتل الذي يمقت كافة متع الدنيا حتى ما حلله الله لسائر الناس، بل ما دعا الله إليه إسعادًا للناس، وإشعارًا لهم بعظيم نعمه وفضله، صوروا عيسى بصورة الرجل النافر من الدنيا الفار من الناس والحياة، وتصوروا أنهم بهذا قد أحسنوا إلى عيسى أو رفعوا من قدره، وما دروا أنهم قد أساءوا إليه، بل ورموه بما هو منه بريء.

وفي هذه الفترة نتحدث عن عيسى الإنسان المحب للحياة، ولكافة متعها الحلال التي خلقها الله وذللها لعباده، وأنعم بها على خلقه، ليشكروا ويكبروا ويسبحوا بحمده.

لم ين عيسى بامرأة قط، ولكن عرفته النساء صديقًا، عرفنه وعرفهن صحبة بريئة، مستطابة حلوة.

تروي لنا مريم المجدلية إحدى صديقات عيسى قصة لقائها الأول معه، ومريم تلك الملقبة بالمجدلية كانت من أجمل نساء عصرها، يخطب ودها الأمراء والعظماء، ويشبع في أحضانها طلاب الجنس ولذا كانت تدعى الساقطة التي استحوذ عليها الشيطان، أعطت مريم جسدها لكل طالب، ولكنها لم تعط روحها لأحد، أحبها الكثيرون ولم تحب أحدًا، إلى أن رأت عيسى فأحبته، وأعطته روحها وقلبها ولم تفرط فيهما لأحد من قبل، أحبته حبًا بريئًا، وعشقته عشقًا عذريًا، تحدثنا المجدلية عن مشاهدتها الأولى لحبيبها وحديثها معه فتقول: «تطلعت إليه واضطربت نفسي في أعماقها فقد كان جميلاً، كان ذا جسد فريد، ولقد خيل إليّ أن بين أجزاء جسمه عشقًا متبادلاً. وهنا ارتديت ثوبًا من الحرير الدمشقي. وتركت بيتي أقصد قصده، ترى أكانت هي وحدتي التي دفعتني إليه - أم هي ريحه العطرة التي جذبتني نحوه؟ أكان نهم في عيني إلى الحسن، أم كان جماله هو الذي خطف بريق عيني؟ لست أدري من هذا شيئًا إلى وقتي هذا. لقد سرت نحوه في ثيابي بشذاها العطر ونعلي الذهبية التي أهداها إليّ القائد

الروماني، وعندما أدركته قلت: عم صباحًا، قال: عمي صباحًا يا مريم.

وهنا قلت له: هلا أتيت إلى داري؟ فقال: أولست حقًا في دارك؟ .. وثانية قلت له: تعالى إلى داري فشاركني الخبز والنبيذ، فقال: ولم تطلبين إليَّ أن أكون ضيفك؟ قلت: وكأن كل ما في جسدي من تراب وما يلابسه من روحٍ يدعوه إلي: لقد ضرعت إليك أن تلم بداري. وهنا نظر تجاهي، ينعكس إليَّ نور من عينيه كنور النهار في رابعته وقال: ما أكثر محبيك، ولكن لن تجدي غيري لك حبيبًا، غيير من الرجال يحبون أنفسهم في وصلك، أما أنا فأحبك لنفسك، غيري من الرجال يرون فيك جمالاً سيذبل قبل أن تذبل سنوهم، أما أنا فأرى فيك جمالاً لن يذبل ولن يبيد.. أنا وحدي أحب فيك ما لا يراه سواي»[1].

ويحدثنا الحواري لوقا عن صديقة أخرى لعيسى، كانت زانية أيضًا، ولكنها أحبت عيسى وتابت على يديه، وبذلت من أجله كل غال، يقول لوقا إنه بينما كان عيسى مدعوًا إلى الغذاء على مائدة أحد الأغنياء «وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة إذ علمت أنه متكيء في بيت الفريسي، جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبل قدميه بالدموع، وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبل يديه وتدهنهما بالطيب، فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك تكلم في نفسه قائلاً: لو كان هذا نبيًا لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما هي أنها خاطئة»[2].

كان قبول عيسى لتصرف الزانية معه وسماحه لها بأن تدهن قدميه بالعطر الثمين، وتمسحهما بشعر رأسها، مثار دهشة المتكئين مع عيسى ومبعث استغرابهم واستنكارهم، فكيف وهو المعلم والنبي يرضى لامرأة، وأية امرأة، امرأة ساقطة زانية، كيف يقبل منها عيسى هذا الرفق وهذا الحنان، وهذا الود

(١) انظر جبران خليل جبران «عيسى» ترجمة د. ثروت عكاشة (ص ١٦ - ١٨).

(٢) لوقا (ص ٧ : ٣٧ - ٣٩).

وهذا التقرب . . .

وثالثة قابلها عيسى بالقرب من بئر، كانت تستقي منه، فطلب منها عيسى أن تعطيه ليشرب، فسقته وتجاذبا أطراف الحديث وطابت لهما الصحبة، فأمضى عيسى أكثر اليوم معها حتى أن تلاميذه الذين كانوا قد تركوه لبعض حاجتهم عادوا آخر النهار فوجدوه ما زال مع المرأة فتعجبوا لذلك كثيراً، وإن لم يصارحوا معلمهم بدهشتهم، يقول الحواري يوحنا إن التلاميذ كانوا «يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة. ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب أو لماذا يتكلم معها»[1].

وزانية رابعة ضبطوها في حضن أحد عشاقها، فأتوا بها إلى عيسى وطلبوا منه رجمها حسب الشريعة، فدافع عنها، ونهى الناس عن قتلها، فأحبته وصارت صديقته[2].

وخامسة وسادسة، مرثا وأختها مريم، شقيقتا ألعازر، أحبهما عيسى وأحبتاه، وصادقهما وصادقتاه، كم دعتاه إلى بيتهما، وكم من الأيام والليالي قضاها بينهما، كم بذلتا من أجله وكم بذل من أجلهما، حتى مات شقيقهما ألعازر فأقامه من الموت لأجلهما.

وغير هؤلاء وهؤلاء كثيرات عرفن عيسى وصادقونه، وأحب صحبتهن وألفنه، ولكن لم تكن له بإحداهن علاقة شائنة أو مريبة، فالمقطوع به أن علاقته بهن لم تتعد الصداقة البريئة، هن يعشقن فيه حسنه ووداعته وعقله وحكمته، وهو يصاحبهن لينأى بهن عن طريق الرذيلة، لم يبن عيسى بإحداهن، ولم يضاجع أيًا منهن.

يقول الواعظ بولس إليا: «إن المسيح امتنع ونصح تلاميذه بالامتناع عن الزواج المشروع»[3]، ويقول القديس بولس في رسالته إلى أهل بلدة كورنثوس

(١) انظر: يوحنا (ص ٤ : ٢٧). (٢) يوحنا (ص ٨ : ٣ - ١١).

(٣) بولس إلياس: يسوع المسيح ص ٤٦ .

«حسن للرجل أن لا يمس امرأة . . أقول لغير المتزوجين وللأرامل، إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا - أي بغير زواج - أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة»[1] . . .

هؤلاء وغيرهم توهموا أن عيسى قد امتنع عن الزواج، وأوهموا الناس أن عيسى كره المرأة، وابتعد عنها واعتبرها رجسًا من عمل الشيطان، وتمادى البعض في وصف عيسى بالبكر البتول الذي لم تمسه امرأة، ولم تقترب منه إحدى بنات حواء، حتى اعتقد البعض أن نفور عيسى من المرأة راجع إلى نقص في رجولته أو عيب في تكوينه، والحقيقة أن هذا أو ذاك غير صحيحين في حق عيسى الإنسان السوي الكامل، الطبيعي في كل شيء .

حقًا لم يتزوج عيسى، ولكنه أيضًا لم يكره المرأة، ولم يبتعد عنها، بل كانت له بالنساء علاقات وصداقات ولقاءات، ولقد كان من الممكن أن يتزوج عيسى لو طال به العمر أو قطع شوطًا في تحقيق رسالته، ولكن عيسى لم يعش أكثر من ثلاث وثلاثين سنة هي كل عمره على ظهر الأرض، وكم منا يقضي مثل هذا العمر أو أكثر ولا يفكر في الزواج، ثم يتزوج بعد ذلك في سن الأربعين أو حتى الخمسين. . . كم من الرجال شغلتهم أعباؤهم الكبيرة عن المرأة فانشغلوا عنها، ونفضوا عن كاهلهم أحمالها، كم من العظماء والكبراء امتنعوا عن الزواج تضحية بأنفسهم وإنكارًا لذواتهم من أجل أوطانهم وعظيم أهدافهم، رغم أنهم يتفجرون شبابًا ورجولة، عظام آثروا أن ينفقوا حيويتهم في سبيل إسعاد الناس ورفع شأن الأوطان، بدلاً من سكبها في أحضان النساء وإهراقها تحت أقدامهن، فهل يمكن اعتبار هؤلاء شواذًا أو ناقصي رجولة؟ .

وعيسى عليه السلام، النبي العظيم، انشغل في شرخ شبابه بما اختاره له ربه، بأن ينذر بني إسرائيل باقتراب الملكوت، ويدعوهم إلى ترك المعاصي

---

(٤) ١ كورنثوس : ص ٧ .

والشرور، وإلى العودة إلى حظيرة الله، ليكونوا أبناء أبيهم الذي في السموات.. انشغل عيسى برسالته الكبيرة، فلم يتزوج صغيرًا، ولم يلجأ إلى اللذة الحرام بل اكتفى بالصداقة والصحبة البريئة مع النساء، ولو قدر لعيسى أن يمتد به العمر، وأن يرى نجاح رسالته وقبول تعاليمه، لآثر أن يستريح ويهنأ في ظل بيت سعيد وزوج هانئة، بل لتزوج بزوج وأزواج وأبعد عن نفسه مظنة الشك في رجولته أو الافتراء بشذوذه.

وبالإضافة إلى علاقات عيسى البريئة بالنساء، فقد كان عيسى محبًا للضحك والمرح وللسرور والابتهاج، كان يحضر الولائم والأفراح ويشارك الناس سعادتهم، وكان يجالس العشارين والخطاة ويصاحب الأشرار كما يصاحب الأخيار.

كان عيسى يحب أطايب الطعام، ويقبل الدعوة إلى الموائد الكبيرة، ولو كان الداعي عشارًا[١]، والجالسين معه من أهل السوء، ولقد كان هذا التصرف من عيسى بقبول مجالسة الأشرار مثار النقد والتعجب من كثيرين من الناس يحدثنا الحواري لوقا أن أحد الأغنياء صنع وليمة لعيسى وتلاميذه، وكان أغلب المدعوين إليها من الشعارين والخطاة يقول لوقا: «وصنع له لاوى ضيافة كبيرة في بيته، والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعًا كثيرًا من عشارين وآخرين، فتذمر كتبتهم والفريسيون على تلاميذه قائلين: لماذا تأكلون وتشربون مع عشارين وخطاة»[٢].

ويحدثنا الحواري متى الذي كان أحد جباة الرومان أنه صنع أيضًا لعيسى وليمة كبيرة ودعاه إلى بيته ودعا معه عبيد المال واللذة العشارين والخطاة، فجالسهم عيسى وأكل معهم وشرب الطعام والخمر، ويعترف متى أن هذا التصرف من عيسى كان مثار النقد والاستنكار، يقول متى: «وبينما هو متكئ

(١) العشار هو المرابي الذي يقرض النقود بالربا الفاحش.

(٢) لوقا (ص ٥ : ٢٩ - ٣٠).

في البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة»(١).

وكان عيسى يهوى حضور الأعراس والأفراح، ويطرب لسماع الأغاني والموسيقى، ويشارك الناس أنواع اللهو، وفي أحد تلك الأفراح التي دعي إليها عيسى شرب الناس خمر العرس كله، ولم يبق خمر بعد، وما زال الليل في أوله، وخشي عيسى وأمه على الناس أن يتحول سرورهم وجومًا وأن تضيق العروس رفقة - صديقة عيسى - بهذا النقص في الشراب، فقام بمعجزة أحالت الماء إلى خمر جيد، شرب منه المدعوون فزاد سرورهم وعلا صخبهم، وكانت هذه هي معجزة عيسى الأولى، يحدثنا عن ذلك الحواري يوحنا فيقول: «وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل(٢) وكانت أم يسوع هناك ودعى أيضًا يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر، فقال لها يسوع: مالي ولك يا امرأة، لم تأت ساعتي بعد، قالت أمه للخدام: مهما قال لكم فافعلوه، وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة فقال لهم يسوع: املأوا الأجران ماء، فملأوها إلى فوق ثم قال لهم : استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ، فقدموا. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرًا ولم يكن يعلم من أين هي لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا رئيس المتكأ العريس وقال له: كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً، ومتى سكروا فحينئذ الدون، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة الآن»(٣).

هذه الحياة التي كان يحياها عيسى ، إذا ما قارناها بكثير من تعاليمه، أو على الأصح التعاليم التي نسبها البعض إليه، تعاليم الزهد والانسحاق والتجرد

(١) متى (ص ٩ : ١٠ - ١١). (٢) إحدى المدن الفلسطينية.
(٣) يوحنا (ص ٢ : ١ ـ ١٠).

والتي حلا للبعض تصوير عيسى بها، وإلباسه ثوب الفاقة والضنك والبؤس والشقاء، إذا قارنا بين الحياة الواقعية لعيسى وبين هذه التعاليم التي نسبت إليه، أحسسنا بكثير من الغموض والتناقض، بل الحيرة والاضطراب.

فإذا كان عيسي قد نادي فعلا بهذه التعاليم الزاهدة، التي تدعو إلي ترك الدنيا والاندثار في الصوامع والأديرة فلماذا لم يطبق هذه التعاليم علي نفسه؟ ولماذا لم يقرن الفعل بالقول ؟!

وإذا لم تكن هذه تعاليم عيسى - وهذا هو الأرجح- فلماذا ينسبها البعض إلي عيسى، وعيسى نفسه لم يكن بهذه الصورة التي يحاول البعض تصويره بها!؟

إن هذا التناقض بين الأقوال والأفعال جعل بعض الباحثين يعتقدون أن عيسى قد عدل عن تعاليم التجرد والتحنث، وعاد إلي طبيعته الإنسانية عندما أتي هذه التصرفات، يقول الأستاذ العقاد « إن عيسى غير المحور حين قبل إنفاق الدنانير في عطر تمسح به قدماه وحين قبل أن يشهد الأعراس، وضرب الأمثال لأتباعه في أفراح الحياة، وفي براءة كل فرح يأتي من القلب ويسر الجسد ولايحزن الروح»[1].

والحقيقة في نظرنا أن عيسى لم يغير المحور، ولم يعدل عن تعاليم العزلة والسحت، ولكن هذه التعاليم نسبت إليه وهو منها بريء، نسبت إليه وظن أتباعه أنهم بها يرفعون قدره وهم لا يدرون أنهم قد أساءوا إلى عيسى وطعنوه في إنسانيته ورجولته، فعيسى عليه السلام النبي الإنسان، قد ترك نفسه على سجيتها، وعاش الحياة السارة المرحة التي أرادها الله للناس، واستمتع بطيبات ما سخر الله لنا، وحمد الخالق على جليل نعمه، فكان مثال العبد المؤمن الصالح، يقول جل وعلا: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ

---

(١) عباس العقاد: عبقرية المسيح ص ١٤٥ .

لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

• يحيى وعيسى:

يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان هو ابن الكاهن الصالح زكريا وأمه تدعى أليصابات، وقد كبر الزوجان الطيبان حتى شاخا ولم ينجبا نسلاً، فقد كانت أليصابات عاقرًا ولكنهما كانا يدعوان الله دائمًا أن يرزقهما بغلام يكون قرة لأعينهما، ويخلف أباه في خدمته وكهنوته، وأخيرًا استجاب الله لتضرعاتهما، وبشرهما الملاك بغلام زكي صالح حصور، يكون نبيًا من أنبياء بني إسرائيل، يحدثنا الحواري لوقا عن تبشير الملاك لزكريا بغلامه يحيى فيقول: «فظهر له ملاك الرب واقفًا عن يمين مذبح البخور، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف، فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنًا وتسميه يوحنا، ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون يفرحون بولادته، لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب ومن بطن أمه يمتليء من الروح القدس، ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم»[٢].

ويتحدث القرآن الكريم عن معجزة ميلاد يحيى بكلمة من الله منذورًا للبتولة منذ مولده، طاهرًا لا يقرب الخمر ولا النساء، يقول سبحانه: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٤١) ﴾[٣].

---

(١) سورة الأعراف: ٣٢. (٢) لوقا (ص ١ : ١١ - ١٦).

(٣) سورة آل عمران: (٣٨ - ٤١).

والتشابه بين يحيى وعيسى يكاد يكون تامًا، فبين الرسولين صلة قرابة متينة، فأمهما أختان، ذلك أن أليصابات أم يحيى هي الأخت الشقيقة لحنة أم مريم، أي أن يحيى وعيسى يعتبران ولدي خالة، كذلك هما متقاربان كثيرًا في السن، ولا يتجاوز الفرق بين عمريهما أشهرًا معدودات، فبعد أن بشر جبريل عليه السلام الكاهن زكريا بمولد يحيى، عاد بعد ستة أشهر فبشر مريم بمولد عيسى، أي أن يحيى يكبر عيسى بستة أشهر.

ولقد بدأ يحيى دعوته قبل عيسى، فكان يدعو الناس إلى التوبة ويعمدهم في نهر الأردن لتطهيرهم من الخطايا والذنوب، ولقد أتى عيسى إلى يوحنا وطلب منه تعميده لغفران الخطايا شأنه شأن الآخرين، يحدثنا الحواري مرقس عن ذلك فيقول «كان يوحنا يعمد البرية ويكرز بمعمورية التوبة لمغفرة الخطايا، وخرج إليه جميع كورة اليهودية وأهل أورشليم واعتمدوا جميعهم منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم . . وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن»[(1)]، ويقول الحواري متى أن عيسى عندما سمع بمعمورية يوحنا سافر خصيصًا من مدينة الجليل إلى الأرن ليعتمد من يوحنا وينال بركته، يقول متى: «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه»[(2)]. وفي إنجيل العبريين - وهو غير الأناجيل المعتمدة من الكنيسة - أن أم عيسى وإخوته قالوا له إن يوحنا المعمدان يوالي التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا إليه ليعمدنا، فقال لهم أية خطيئة جنيت حتى أذهب إليه لتعميدي . . اللهم إلا أن يكون هذا القول الذي قلته.

وعيسى لم يبدأ دعوته إلا بعد أن انتهى يحيى، وبعد أن قدم رأسه قربانًا على مذبح الشهادة، وسار عيسى على النهج نفسه وبدأ ينذر الناس، دعوتان مترابطتان متشابهتان حتى كأنهما دعوة واحدة بدأها يحيى وأتمها عيسى، بنفس الطريقة والمنهج، ونفس الألفاظ والأسلوب، وإذا كان هناك من خلاف بين

---

(١) مرقس (ص ١ : ٤ - ٦ ، ٩). (٢) متى (ص ٣ : ١٣).

الدعوتين في بعض التفاصيل فإنما مرجعه الاختلاف البسيط بين الشخصيتين لاختلاف ظروف النشأة والبيئة.

ويعترف كتاب الأناجيل بهذه الحقيقة، حقيقة التماثل والتطابق بين دعوتي يحيى وعيسى، وحقيقة أن عيسى كان مكملاً ليحيى، وأنه لم يبدأ رسالته إلا بعد أن عمده وباركه يحيى ثم مات يحيى فخلفه عيسى في رسالته، يقول الحواري مرقس «وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول : قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله»(١).

ويقول الحواري متى «ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل . . ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات»(٢)، ويصيح عيسى منذرًا الأشرار «أيتها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم»(٣).

هذه الدعوة التي بدأها عيسى بعد موت يحيى لم تكن إلا ترديدًا لدعوة يحيى عليه السلام بنفس الطريقة والألفاظ والأسلوب، حتى لنحس بوضوح أنهما دعوة واحدة، يقول الحواري متى عن يحيى ودعوته «وفي تلك الأيام جاء يوحنا يكرز في برية اليهودية قائلاً : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات»(٤).

وقبل أن يصيح عيسى منذرًا الأشرار كان يحيي يصرخ متوعدًا أهل السوء «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة»(٥).

هذا التشابه بين دعوتي يحيى وعيسى، وقيام عيسى بترديد ألفاظ يحيى

---

(١) مرقس (ص ١ : ١٤ - ١٥).
(٢) متى (ص ٤ : ١٢ - ١٧).
(٣) متى (٢٣ : ٣٣).
(٤) متى (ص ٣ : ١ - ٢) .
(٥) متى (ص ٣ : ٧ - ٨)، لوقا (ص ٣ : ٧ - ٨).

والسير على نهجه قد جعل الكثيرين يرون في يحيى أستاذًا لعيسى، يقول الكاتب ول ديورانت «إن الذي أثار حماسة يسوع الدينية هو عظات يوحنا ابن أليصابات قريبة مريم، وقد آمن المسيح بتعاليم يوحنا وإن تعاليمه هو لم تفترق في جوهرها عن تلك التعاليم»[1].

ويؤيد القرآن الكريم هذا التشابه والتماثل بين يحيى وعيسى ويخلع على عيسى نفس الصفات والمزايا التي خلعها على يحيى يقول تبارك وتعالى عن يحيى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)﴾[2].

ويقول سبحانه عن عيسى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾[3].

ولقد شهد الجميع بعظمة يحيى وفضله، وبطهره وقداسته، أثنى عليه المؤرخ الكبير يوسفيوس في الوقت الذي لم يشر فيه إلى عيسى، إذ قال عنه أنه كان إنسانًا صالحًا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله، أما عيسى نفسه فقد أقر ليحيى بأنه أفضل الأنبياء وأعظم المولودين من النساء، يقول عيسى للناس «ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا أنبيٌّ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي . . لأني أقول لكم: إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان»[4].

وقد تشبه عيسى دائمًا بيحيى، ومثل نفسه به طالبًا من الناس أن يؤمنوا به كنبي كما آمنوا بيحيى، وأن يقبلوا تعاليمه كما قبلوا تعاليم يحيى، يحدثنا

---

(١) قصة الحضارة (جـ ٣ – ص ٢١٦).
(٢) سورة مريم (١٢ – ١٥).
(٣) سورة مريم (٣٠ – ٣٣).
(٤) إنجيل لوقا (ص ٧ : ٢٦ ، ٢٨).

الحواري متى عن ذلك فيقول عن عيسى «ولما جاء إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلم قائلين: بأي سلطان تفعل هذا، ومن أعطاك هذا السلطان، فأجاب يسوع وقال لهم: وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة فإن قلتم لي عنها، أقول لكم أنا أيضًا بأي سلطان أفعل هذا: معمودية يوحنا من أين كانت، من السماء أم من الناس، ففكروا في أنفسهم قائلين: إن قلنا من السماء يقول لنا: فلماذا لم تؤمنوا به، وإن قلنا من الناس نخاف من الشعب، لأن يوحنا عند الجميع مثل نبي، فأجابوا يسوع وقالوا: لا نعلم، فقال لهم هو أيضًا. . ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا»[1].

ومع ذلك فقد كان بين يحيى وعيسى بعض التمايز ، تمايز في الشخصية والطباع، وفي العادات والاتجاهات، كان هناك تطابق بين الدعوتين، وتمايز بين الشخصيتين، كان عيسى يحب اللهو والمرح، والمتعة والصخب، وكان يحيى يكره كل ذلك ويميل إلى السكون والنسك، كان عيسى يستمتع بالطعام الجيد ويحتسي الخمور في الأفراح، أما يحيى فكان زاهدًا في متاع الدنيا، يهيم في الصحاري والقفار، بجسد أعياه الضنك والنحول، يقتات على الحشائش والحشرات، ويتدثر بجلود الحيوانات، يقول الحواري متى عنه «ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد، وكان طعامه جرادًا وعسلاً بريًا» [2].

وفي الوقت الذي كان فيه عيسى يصادق الخطاة، كان يحيى يعتزل الناس ويكره الساقطات وصناع الإثم، ويهرب بنفسه من فجور العالم إلى البراري والصحاري حيث الهدوء والصفو، وحيث النقاء والطهر، يأكل الجراد ويلتحف السماد، ويعتصم بالجبال ويصوم أكثر الأيام، ويشتد على نفسه في تهجده ونسكه وفي صلاحه وتقواه، ومن هنا تسربت دعوى الرهبانية إلى المسيحية.

---

(١) متى (ص ٢١ : ٢٣ - ٢٧)، لوقا (ص ٢٠ : ١ - ٨).

(٢) متى ص ٣: ٤)، مرقس (ص ١ : ٦).

ولقد عرف عيسى هذا التمايز بينه وبين يحيى، وهذا الاختلاف بينهما في الميول والمشارب، ولكنه احتار وزميله عليهما السلام في كيفية إرضاء البشر الذين لا يعجبهم شيء، لم يعجبهم العبوس ولم يرضوا عن المرح، ضاقوا بالزاهد ولم يعبأوا بالمتحرر، رفضوا يحيى البتول، ونفروا من عيسى الأكول، يقول عيسى عليه السلام مصوراً هذه الحيرة «بمن أشبه هذا الجيل يشبه أولاداً جالسين في الأسواق ينادون إلى أصحابهم ويقولون: زمرنا لكم فلم ترقصوا، نحنا لكم فلم تلطموا، لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان، جاء ابن الإنسان (عيسى) يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر، محب للعشارين والخطاة، والحكمة تبررت من بنيها»[١].

شرب عيسى الخمر وحول الماء في الأفراح إلى خمر، هذا ما تقوله الأناجيل وإن كنا نعتقد أن عيسى عليه السلام لم يشرب الخمر لأنها محرمة في جميع الشرائع، حرمها الله على هارون وأولاده عند دخول قبة الشهادة لئلا يموتوا[٢]، وذم النبي أشعياء شاربي الخمر ولعنهم[٣]، أما يحيى عليه السلام فكان من صفات تقواه عدم شرب الخمر «لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب»[٤].

ومن يوحنا المعمدان أخذت المسيحية أيضاً سر المعمودية وهو أحد أسرار الكنيسة السبعة فكما كان يحيى يعمد الناس في نهر الأردن ليتطهروا من الدنس والإثم، صار العماد بالماء أهم شعائر الكنيسة، فبمجرد ولادة الطفل يحضره والداه إلى الكنيسة لتعميده وإلا ظل كافراً، فبالعماد فقط يصير الإنسان مسيحياً. وطريقة العماد في الكنائس هي نفس طريقة يحيى عليه السلام، صنعوا بئراً أو بحيرة صغيرة في كل كنيسة على غرار نهر الأردن الذي كان يعمد يحيى فيه الناس، وملأوا البحيرة بالماء، فإذا احتاجوا لتعميد شخص لتنصيره

---

(١) متى (ص ١١ : ١٦ - ١٩). (٢) التوراة : أخبار (ص ١٠ : ٨ - ٩).

(٣) أشعياء ص ٥ ، ٢٢ ، ص ٢٨ : ٧). (٤) إنجيل لوقا (ص ١ : ١٥).

سواء كان طفلاً حديث الولادة ولد لأبوين مسيحيين، أو كان رجلاً أو امرأة اعتنقت المسيحية حديثًا فإنه يخلع ملابسه ويصير عاريًا كما ولدته أمه ثم يأتي الكاهن ومساعدوه ويحملونه ويضعونه داخل البئر ويقومون بتغطيسه بأكمله ثلاث مرات في البحيرة حتى يتطهر من دنس الحمل وخطيئة الميلاد، ويصير مسيحيًا مباركًا:

كان عيسى يتحاشى الجدل السياسي وتوجيه النقد للحكام أو ذوي السلطان، بل كثيرًا ما كان يلاينهم، أما يحيى فكان سيفًا بتارًا على كل عوج أو انحلال ولو تعرض لأكبر الرءوس العتاة، لم يخش في الحق لائمًا، ولم يكن على شيء نادمًا، حتى دمه الثمين لم يبخل أن يبذله رخيصًا على مذبح الفضيلة والشرف.

كان عيسى يدعو إلى طاعة الرومان وقيصرهم أغسطس مستعمري إسرائيل، وكان يحث مواطنيه على دفع الجزية والمكوس لهم، أتوا إليه يومًا يلتمسون منه النصح والإرشاد «قالوا له : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا. نعطي أم لا نعطي؟» كان هذا السؤال المباشر محرجًا لعيسى، عيسى الذي حرص دومًا على إرضاء الحكام، وعدم الاصطدام بذوي السلطان، كيف يرد على هؤلاء الذين أتوا إليه يتفجرون حنقًا وغضبًا على المستعمرين يبحثون عن زعيم يشعل فيهم نار الثورة، ويحل يودهم في حرب التحرير.. ولكن عيسى لم يكن هذا الرجل، ولذلك فقد أحرجه السؤال وتحير في الإجابة، ولذلك وقبل أن يجيب عاتب السائلين على هذا المأزق الذي أوقعوه فيه «قال لهم لماذا تجربونني؟» طلب عيسى إعفاءه من الإجابة ولكنه خيب الآمال وحطم أحلام الجماهير، وأمرهم بإطاعة القيصر والانصياع للولاة، ودفع الجزية والرسوم وحذرهم من الثورة والعصيان. قال عيسى« «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[1].

(١) إنجيل متى (ص ٢٢ : ١٥ - ٢٢)، مرقس (ص ١٢ : ١٣ - ١٧)، لوقا (ص ٢٠ : ٢٠ - ٢٦).

دعا عيسى قومه إلى إطاعة قيصر كما يطاع الله، وكانت إجابة عيسى مثار دهشة الجماهير، ولقد اعترف كتاب الأناجيل بما أصاب الناس من ضيق وأسف لرد عيسى الذي خيب الآمال، تقول الأناجيل إن الجموع «تعجبوا منه» وحزنوا على آمالهم الضائعة فيه.

وعلى درب عيسى سار تلاميذه من بعده، يدعون إلى طاعة السلاطين، والانصياع للملوك، كلمة الله وظله على الأرض، الذين أقامهم سبحانه نوابًا عنه، وأمر الناس بإطاعتهم والخضوع لرغباتهم، يقول بولس في رسالته إلى أهل مدينة رومية «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة .. أعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام»[١].

وفي الرسالة إلى أهل مدينة أفسس يدعو بولس العبيد إلى إطاعة السادة، فتلك هي مشيئة الله «أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب»[٢]، أما بطرس التلميذ الأول لعيسى وخليفته فيدعو أيضًا إلى إطاعة الملوك والسلاطين ليس الصالحين منهم فقط بل أيضًا الظالمين والمتجبرين ويدعوا العبيد لإطاعة السادة «اخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب، إن كان للملك فكمن هو فوق الكل، أو للولاة فكمرسلين منه أكرموا المملك، أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة المترفقين فقط؛ بل للقساة أيضًا[٣].

دعا تلاميذ عيسى أتباعه إلى طاعة الملوك والسلاطين وإلى الخضوع للجبابرة

(١) رومية (ص ١٣ : ١ - ٢، ٧ - ١٨). (٢) أفسس (ص ٦ : ٥ - ٦).

(٣) بطرس (٢ : ١٣ - ١٤ ، ١٧ - ١٨).

ودفع المكوس والضرائب لهم والاستكانة لكافة رغباتهم، كما دعوا العبيد للخضوع للسادة والرضى بالذل والهوال، دعوا إلى طاعة الملوك والسادة، ففي طاعتهم طاعة الله، وفي رضاهم رضا الرحمن.

هكذا كان عيسى ملاينًا أما يحيى فكان صارمًا،كان يحيى ثورة من أجل الحق، وبركانًا يغلي بالغضب والحمية على الشرف، لم يعرف في الحق كبيرًا، ولم يخش فيه سلطانًا أو أميرًا، حارب الظلم والفساد في القصور وتعقبه في الفلوات، أصر على تطهير الرءوس قبل تنظيف الأقدام، وظل حياته أمينًا على الصدق، يسعى دائمًا للقضاء على الإثم ولو كلفه ذلك عمره، ولم يبخل بحياته يبذلها رخيصة في سبيل الحق، كان يستطيع أن ينقذ رأسه بكلمة، ليست لفظ استعطاف أو استجداء بل مجرد العدول عن رأي سابق، مجرد التخفيف من هجومه الحاد على الملك وزوجه، ولكنه رفض وقدم رأسه طواعية واختيارًا فوق طبق، ضريبة هينة وتضحية ضئيلة من أجل القيم والمبادئ.

كان الملك هيروديس حاكم الجليل في ذلك الوقت، وكان غارقًا في الشهوة حتى أنفه، تساق إلى قصوره أجمل الفتيات، وأفتن الراقصات عاريات، يقضي الليالي بينهن في خلاعة ومجون، يتجرع كئوس الخمر ويعب كئوس الشهوة، ويتباهى بارتكاب المعاصي والمنكرات، كان لا يلمح جميلة إلا انطلق الوحش الكامن في نفسه يبغي افتراسها ولو كانت من المحرمات شرعًا، ولو ارتكب في ذلك أبشع الجرائم أو هتك الحرمات. ذهب يومًا لزيارة شقيقه فيلبس في روما، فأعجبته هيروديا زوج أخيه، عبث جمالها بفؤاده، وأيقظ الحيوان بداخله فراح يرمقها في اشتهاء، ويغازلها في غفلة أخيه، ويزين لها الهرب معه إلى بلاده حتى وافقت اللعوب وتركت زوجها وعادت مع الذئب إلى مملكته، فطلق زوجه واقترن بها، ولم يرض نبي الله يحيى عن هذه المعاصي فراح يندد بآثام الذئب واللعوب، ويدعو هيروديس إلى ترك زوج أخيه، مما أثار غضب الملك وزوجه، وكلف يوحنا حياته، دفعت ثمنها سالومي ابنة هيروديا، وكان الثمن رقصة

ماجنة لسالومي أثارت الملك فدفع إليها برأس يوحنا. ونترك للحواري مرقس يروي لنا قصة مصرع يحيى عليه السلام، يقول مرقس «لأن هيروديس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج بها لأن يوحنا كان يقول لهيروديس لا يحل لك امرأة أخيه، فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر، لأن هيروديس كان يهاب يوحنا عالمًا أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه وإذ سمعه فعل كثيرًا وسمعه بسرور. وإذا كان يوم موافق لما صنع هيروديس في مولده عشاء لعظمائه وقواد الألوف ووجوه الجليل، دخلت ابنة هيروديا ورقصت فسرت هيروديس والمتكئين معه فقال الملك للصبية: مهما أردت اطلبي مني فأعطيك، وأقسم لها أن مهما طلبت مني لأعطينك حتى نصف مملكتي، فخرجت وقالت لأمها وماذا أطلب: فقالت: رأس يوحنا المعمدان فدخلت للتو سرعة إلى الملك وطلبت قائلة: أريد أن تعطيني حالاً رأس يوحنا المعمدان على طبق، فحزن الملك جدًا، ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها، فللوقت أرسل الملك سيافًا وأمر أن يؤتى برأسه فمضى وقطع رأسه في السجن وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها»[1].

ويعلق الأديب عبد الحميد السحار على هذا الحادث الأليم بقوله: «ذبح يحيى، ذبح من قال عيسى عنه: لم تلد النساء مثله، ذبح وما اقترف إثمًا ولا خطيئة، ذبح طاهر الذيل عفيفًا، ولو كانت دعوى الفداء حقًا، وأن الله يريد فداء عن خطيئة آدم، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء لكان ذلك الدم الطاهر، الذي بلا جريرة، أزكى دم يقدم للفداء، وخير كفارة عن خطيئة آدم»[2].

هذا هو يحيى النبي العظيم بدأ الرسالة قبل عيسى، وأتى إليه عيسى فتعمد

(١) مرقس (ص ٦ : ١٧ - ٢٩، متى (١٤ : ٣ - ١١).

(٢) عبد الحميد جودة السحار - المسيح عيسى ابن مريم ١٣٨ .

منه وتتملذ على يديه، وأخذ عنه طريقته وتعاليمه، وإن لم يكن عيسى في زهده وتحنثه، وفي صرامته وشدته، فلما نال يحيى شرف الشهادة وقدم رأسه قربانًا على مذبح الفضيلة، التقط عيسى الخيط وأكمل الرسالة بمساعدة تلاميذ يحيى الذين صاروا تلاميذ لعيسى.

وهنا قد يثور التساؤل . . كيف يظهر يحيى وعيسى في وقت واحد، نبيان مختلفان في عصر واحد برسالة واحدة، يكمل كل منهما الآخر، أليس الأمر مثيرًا للدهشة؟!

قد يبدو ذلك غريبًا لأول وهلة ولكن من يطلع على تاريخ بني إسرائيل يعلم أن حدوث ذلك شيء عادي في إسرائيل، فأنبياء بني إسرائيل كثيراً ما يتعاصرون، فيظهر عدة أنبياء في وقت واحد، وقد يكونون أيضًا من عائلة واحدة، فلقد تعاصر إبراهيم ولوط، وإسماعيل وإسحق، وتعاصر يعقوب ويوسف وباقي الأسباط، وتعاصر موسى وهارون، وداود وسليمان، ويحيى وعيسى، وتعاصر غيرهم كثيرون. يحدثنا سفر الملوك الأول أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يكثرون في الزمن الواحد حتى يعدو بالمئات، يقول السفر «فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعمائة رجل، وقال لهم: أأذهب إلى راموت جلعاد للقتال أم أمتنع، قالوا: اصعد فيدفعها السيد ليد الملك»[1] ، وخير ما ورد في وصف أنبياء بني إسرائيل، وطبيعة عملهم، وكثرة عددهم في الزمن الواحد، قول محمد عليه الصلاة والسلام: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**» فعمل النبي في إسرائيل كعمل العالم والفقيه في الإسلام، تفسير للشرائع والنواميس وحض على اتباع الخير، وسير على نهج سنن الأولين، يقول عيسى عليه السلام مؤكداً أن رسالته ليست إلا تفسيرًا وإكمالاً لما بدأه سالفوه، يقول عيسى «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل».

---

(١) ملوك (١ ص ٢٢ : ٦).

جاء يحيى وعيسى برسالة واحدة سارا بها على درب الأنبياء السابقين، وأتما بها شرائع الأولين، ثم جاء محمد خاتم المرسلين، فأكمل برسالته الرسائل، وختم بشريعته الشرائع، يقول تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ[1] دِينًا﴾ (المائدة : ٣).

* * *

(١) انظر معني الإسلام في كتابنا «الله واحد أم ثالوث» .

الفصل الثالث

حديث المعجزات

لم تخل معظم الدعوات صادقة أو كاذبة، ولم يعدم جل الدعاة فجرة أو صالحين الاستعانة بالخوارق والآيات يؤيدون بها دعاواهم، ويرمون بها إلى السيطرة على الناس، وتطويعهم لإرادتهم وحملهم على الانصياع لهم.

والدعاة الصادقون يلجئون إلى السماء يسألون العون والنصرة، فيمن عليهم العلي القدير بما يشاء من مواهب وإمكانيات، أما الدعاة الكاذبون فيحالفون الجن والشياطين يطلبون المساندة والتأيد، فتجند لهم مملكة الشيطان ما تيسر من القوى والاستعدادات.

● معجزات عيسى:

تروي السير المسيحية أن عيسى عليه السلام قد صنع كثيراً من المعجزات، أخرج الشياطين وشفى المجانين، جعل العرج يمشون والخرس يتكلمون، والعمي يبصرون والبرصى يبرأون، بل أحيا الموتى من القبور وخلق من الطين الطيور.

هذه المعجزات كانت دليل عيسى الأول، وبرهانه على صحة نبوته وصدق رسالته، بل كانت الركيزة الأولى التي قامت عليها المسيحية، يقول الإمام محمد عبده: «أول أصل قامت عليه المسيحية وعمادها هو خوارق العادات، فإذا قرأت الأناجيل المعتمدة فلا تجد للمسيح دليلاً على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق التي تطيل الأناجيل في شرحها وتزيد في عددها، فخوارق العادات من

أظهر الآيات على صحة الاعتقادات».

ولقد كانت هذه المعجزات التي لجأ إليها عيسى لتأييد دعواه، ولحمل الناس على تصديقه بابًا نفذت منه دعوى القول بتأليهه، فما دام يشفي الأمراض والأوجاع، ويرد البصر والحياة ويأتي بالخوارق التي يعجز عنها سائر البشر، فلا شك أنه ليس إنسانًا عاديًا، والأرجح أنه إله أو ابن إله أو بعض إله نزل من السماء وأتى إلى الأرض يعرض على الناس مكنات الآلهة وقدراتها على البشر.

• صاحب المعجزات:

ومع تسليمنا بصحة المعجزات التي فعلها عيسى، وبصدق ما روته الأناجيل عنها فإنه يهمنا بادئ ذي بدئ أن نتساءل: هل كان عيسى يعزو هذه المعجزات إلى نفسه، أم إلى غيره؟ هل كان ينسب فضل الآيات إلى ذاته زاعمًا أنه صاحبها ومصدرها؟ أم أنه مجرد أداة سخرها آخر لإظهار هذه المعجزات؟ ومن هو هذا الآخر الذي سخر عيسى وأيده بتلك المعجزات؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال يهمنا أن نتتبع معجزات عيسى لنرى كيفية إتيانه لها ولمن ينسبها؟

تحدثنا الأناجيل عن معجزة إشباع آلاف من الجياع بخمسة أرغفة وسمكتين فتقول: «فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين رفع نظره نحو السماء وبارك وكسر، وأعطى الأرغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع، فأكل الجميع وشبعوا،ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة والآكلون كانوا نحوة خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد»[1].

هنا نرى عيسى قبل أن يقوم بالمعجزة وقبل أن يبارك الخبز ويقطعه آلاف القطع لإشباع الناس «يرفع نظره نحو السماء» فلماذا يرفع عيسى نظره إلى السماء؟ ولمن يتجه؟ ومن الذي يطلب منه عيسى العون على إتيان المعجزة؟ هل

(١) متى (١٤ : ١٥ - ٢١)، مر (٦ : ٣٤ - ٤)، لو (٩ - ١١ - ١٧)، يو (٦ : ٥ - ١٣).

كان يتطلع إلى أحد النجوم أو الكواكب؟ أو إلى الشمس أو القمر؟ أو أحد المخلوقات في السماء يلتمس منها التأييد لإتمام المعجزة؟ أم كان يدعو خالق الأرض والسماء ليمنحه القوة على تحقيق المعجزة؟.

ومرة أخرى تتكرر معجزة الإشباع، فيقوم عيسى بإطعام أربعة آلاف رجل خلا النساء والأطفال بسبع خبزات وقليل من صغار السمك، وهنا نرى عيسى أيضًا يصلي ويبارك ويحمد ويشكر «أخذ السبع خبزات والسمك وشكر وكسر»[1]، «فمن يا ترى ذلك الذي صلى إليه عيسى، وحمده وشكره على هذه المعجزة؟ هل كان يصلي إلى نفسه ويحمدها ويشكرها؟ أم كان يشكر آخر؟ ومن هو هذا الآخر؟ يروي لنا الحواري مرقس قصة شفاء عيسى لرجل أصم الأذنين أعقد اللسان، لا يسمع ولا يتكلم يقول مرقس : «وجاءوا إليه بأصم أعقد وطلبوا إليه أن يضع يده عليه، فأخذه من بين الجمع على ناحية ووضع أصابعه في أذنيه وتفل ولمس لسانه.. ورفع نظره نحو السماء وقال له: افنا أي انفتح، وفي الوقت انفتحت أذناه وانحل رباط لسانه وتكلم مستقيمًا»[2].

هنا أيضًا نرى عيسى قبل أن يقوم بالمعجزة يرفع نظره نحو السماء ويئن ويتوجع على الرجل الأصم الأبكم، ويسترحم السماء ويتوسل إليها أن تعيد السمع والنطق إلى الرجل المسكين، وعندما يصل دعاء عيسى إلى عنان السماء ويسمح خالقها لعيسى بصنع المعجزة، يتخذ عيسى الخطوات التنفيذية لإتمام المعجزة فتنفتح أذنا الرجل وينحل رباط لسانه.

● الله صاحبها:

ومع استطرادنا في ذكر المعجزات التي قام بها عيسى، يتضح لنا صاحب هذه المعجزات والمصدر الذي استمد منه عيسى القدرة على إتيانها، يتضح لنا ذلك

---

(١) متى (١٥ : ٣٢ - ٣٨)، مر (٨ : ١ - ٩).

(٢) مر (٧ : ٣٢ - ٣٥).

ا اتضح للجموع الذين شاهدوا هذه المـعجزات، بل وللمرضى أنفسهم الذين
وا محلاً لهذه المعجزات.

يروي الحواري لوقا قصة شفاء عيسى لصبي كان به روح نجس، كان يتقمصه
طان فيـصرخ الصبي فزعًـا، وينتابه الصرع والهوس، ولا يتـركه الشيطان إلا
د أهلك قواه. يقـول لوقا «فانتهز يسوع الروح النجس وشـفى الصبي وسلمه
ى أبيه، فبهت الجميع من عظمة الله»[1].

ومرة ثانية يرى عيسى امرأة مقوسـة الظهر، ظلت منحنية طوال ثمانية عشرة
ة، تسير وقد أنهكها الضعف وأجهـدها الخور والهزال، فيرق لها قلب عيسى
قوم بشفـائها، يقول لوقـا «فلما رآها يسـوع دعاها وقال لهـا: يا امرأة إنك
حلولة من ضعفك، ووضع عليها يديه ففي الحال استقامت ومجدت الله».

ومرة ثالثة يـزداد بها وضوح المصدر وينجلي بهـا الطريق إلى المنبع، ويعرف
مـيع الفرق بين المالك والمملوك، وبين التابع والمتـبوع، وبين الأصل والأداة،
دثنا متى عن مفلوج أتوا به إلى عيسى محـمولاً على فراشه لا يستطيع السير
الحركـة «حينئذ قـال للمفلوج: قم احـمل فراشك واذهب إلى بيتك، فـقام
ضى إلى بيتـه، فلما رأى الجـموع تعجـبوا ومجـدوا الله الذي أعطى الناس
طانًا مثل هذا»[2].

ومرة رابعـة شحاذ أعمى يعـيد إليه عيـسى قوة الإبصار، وحين تتفـتح عينا
عمى يمجد الله وجميع الشعب إذ رأوا سبحوا الله»[3].

ومرة خامسة يقوم عيسى بإحياء ابنة أرملة نايين، فأخذ الجميع خوف ومجدوا
، قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه»[4].

معـجزات مختـلفة جرت على أيدي عـيسى وشـاهدها الناس فسعـدوا بها

لو (٩ : ٣٧ - ٤٣).
(٢) متى (١٣ : ١٠ - ١٣).
لو (١٨ : ٣٥ - ٤٣).
(٤) لو (٧ : ١١ - ١٧).

وفرحوا لها، ولكن أبصارهم لم تقف عند الأداة التي صنعت المعجزة بل امتدت إلى خالق الأداة ومحركها، امتدت إلى مصدر المعجزات وصاحبها، عرفوا الأصل والمنبع، وردوا الحق إلى نصابه، شفى عيسى الصبي الذي كان يتقمصه الشيطان فبهت الجموع من عظمة الله، لم يندهش الناس من عظمة عيسى ولم يقدسوه أو يؤلهوه، بل بهتوا من عظمة الله مصدر الآيات ومجريها على أيدي عيسى، واستقام ظهر المرأة المنحنية فسارت مستقيمة فمجدت الله، مجدت صاحب السلطان، وخالق عيسى الإنسان، وشفى المفلوج ورأت الجموع ذلك فمجدوا الله الذي أعطى عيسى وغيره من المرسلين هذا السلطان على صنع المعجزات.

وأصدقاء عيسى وأخصاؤه الذين عرفوا مكانته وخبروا أدق أموره، جهروا صراحة بأن معجزات عيسى وآياته هي من صنع الرحمن، وما عيسى إلا الأداة التي سخرها سبحانه لإظهار الأعاجيب للناس، هذا نيقود يموس أحد أشراف اليهود، وصديق عيسى الحميم، يشهد لعيسى بأنه مرسل من قبل الله وبأنه لولا تأييد الله له لما استطاع أن يقوم بشيء من المعجزات يقول الحواري يوحنا «كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقود يموس رئيسًا لليهود، هذا جاء إلى يسوع ليلاً وقال له: يا معلم نعم إنك قد أتيت من الله معلمًا لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه»[١].

ونفس الحقيقة يعلنها للناس في صراحة بطرس، خليفة عيسى وصديقه الصدوق، يقول بطرس: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال، يسوع الناصري رجل قد تبرهن من قبل الله، بقوات وعجائب صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون»[٢]. وعيسى نفسه النبي الصادق الأمين، لم يخدع الناس ولم يوهمهم أنه صاحب المعجزة أو مصدر الآية، بل كاشف الجموع بالحقيقة كاملة، ما هو إلارسول سخره الله لخدمة الحق ومنحه المعجزات لتأييد رسالته.

(١) يو (٣ : ١ - ٢).

(٢) أعمال الرسل (ص ٢ : ٢٢).

بينما عيسى يسير في الطريق مع حوارييه إذ رأى إنسانًا أعمى منذ ولادته، وسأل الحواريون معلمهم، لماذا ولد هذا أعمى؟ هل لخطأ ارتكبه هو أم لذنب جناه أبواه؟ أجاب يسوع لا هذا أخطأ ولا أبواه، ولكن لتظهر أعمال الله فيه . . ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني»[1]. إذن فالأعمال أعمال الله، والمعجزات من عند الله، وليس أمام عيسى إلا أن ينفذ ما رسمه الله له، وأن ينجز العمل الذي كلفه سبحانه به.

ورواية أخرى يرويها لنا لوقا نرى فيها عيسى يدعو الناس إلى تمجيد الله الذي وهبه قدرة الشفاء ومنَّ عليه بمكنة الإبراء، يقول لوقا عنه : «وفيما هو داخل إلى قرية استقبله عشرة رجال برصى فوقفوا من بعيد، ورفعوا صوتًا قائلين: يا يسوع يا معلم ارحمنا، فنظر وقال لهم: اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة، وفيما هم منطلقون طهروا فواحد منهم لما رأى أنه شفي رجع يمجد الله بصوت عظيم، وخر على وجهه عند رجليه شاكرًا له وكان سامريًا، فأجاب يسوع وقال: أليس العشرة قد طهروا. فأين التسعة؟ ألم يوجد من يرجع ليعطي مجدًا لله غير هذا الغريب الجنس؟ ثم قال له: قم وامض، إيمانك قد خلصك»[2].

هنا نرى عيسى يشفي عشرة رجال برصى، وقبل أن يقوم بشفائهم يأمرهم بالذهاب إلى هيكل اليهود وتقديم أنفسهم للأحبار والكهان، والابتهال إلى يهوه إله إسرائيل، وعندما يطيعون في الطريق يطهرون ويعود أحدهم إلى المعلم عيسى يشكره ويمجد الله رب عيسى، وهنا يفرح عيسى بالرجل الذي وضع الأمور في نصابها وأعطى لكل ذي حق حقه، فالمجد مصدر المعجزات، والشكر للإنسان الذي أجرى الله على يديه المعجزة، ويأسف عيسى لأن باقي العشرة لم يفعلوا كما فعل هذا السامري الغريب عن السلالة اليهودية الأصيلة!.

---

(١) يو (٩ : ١ - ٥).

(٢) لو (١٧ : ١١ - ١٩).

• خوف الفشل:

وعندما ذهب عيسى لإحياء ألعازر، شقيق صديقتيه مريم ومرثا، نرى عيسى عندما يسمع بوفاة صديقه يضطرب وينزعج ويحزن ويبكي على الرجل العزيز، وما هذا شأن الواثق من عمله، المطمئن إلى إنجاز مهمته بإعادة الحياة إلى صديقه، بل نرى عيسى يشخص بعينيه إلى أعلا ويبتهل إلى الله أن يستجيب له وألا يرفض طلبه، ولا يرد وجهه ويقيم صديقه من الموت من أجله، ومن أجل الجموع الشاهدة لتؤمن بالله وبرسوله عيسى، يحدثنا يوحنا الحواري عن هذه الأحداث وتلك المشاعر والمخاوف فيقول «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله. وكان يسوع يحب مرثا وأختها وألعازر.. فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي، ولكني الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه.. ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سرًا قائلة: المعلم قد حضر وهو يدعوك، أما تلك فلما سمعت قامت سريعًا وجاءت إليه .. فلما رآها يسوع تبكي واليهود الذي جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب، وقال : أين وضعتموه؟ فقالوا له: يا سيد تعال وانظر، بكى يسوع. فقال اليهود انظروا كيف كان يحبه، وقال بعض منهم: ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضًا لا يموت، فانزعج يسوع أيضًا في نفسه (خوف الفشل) وجاء إلى القبر، وكانت مغارة وقد وضع عليه حجر قال يسوع: ارفعوا الحجر، قالت له مرثا أخت الميت: يا سيدي قد أنتن لأن له أربعة أيام، قال لها يسوع: ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله، فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعًا ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم ألعازر هلم خارجًا، فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة ووجهه ملفوف

بمنديل، فقال لهم يسوع: خلوه ودعوه يذهب»[١].

لمن ينسب عيسى الخوارق والآيات التي أتاها إلى نفسه، ولكنه ردها إلى صاحبها، إلى الله مرسله، وخالقه، إلى «إصبع الله»، وإلى روح الله، وإلى قوة الله، فليس لعيسى من الأمر شيء، ولكن الأمر كله لله، هذه الحقيقة الكاملة، وهذا التسليم الكامل بالعجز أمام قدرة الله، يعلنه عيسى في صدق «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا»[٢]. هذا هو الحق، وهذا هو الصدق، فليس عيسى إلا الأداة والوسيلة التي سخرها الله لتحقيق أغراضه وإجراء المعجزات على يديه، ليؤمن الناس بالرسالة التي بعثه الله بها لخيرهم وسعادتهم، وليصدقوا أنه رسول الله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

● **زهده فيها:**

عرف عيسى أن هذه المعجزات التي سخرها الله لأدائها ليست مقصودة لذاتها بل لدفع الناس إلى الإيمان بالرسالة، فهي ليست غاية في ذاتها وإنما وسيلة لحمل الناس على التصديق، ورغم ضرورتها في بعض الظروف والأوقات فإنها ليست الوسيلة المثلى لإقناع الناس بصحة الرسالة، وليست الطريقة المستحبة لإرشاد البشر إلى طريق الله.

عرف عيسى هذه الحقائق وكان يأمل في إرشاد الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة دون إرهاب أو تخويف، لذلك لم يكن يلجأ إلى تلك الوسائل إلا مضطرًا كارهًا وبعد إلحاح الناس وإصرارهم عليها، فهو يبدأ في إلقاء العظات على الناس شارحًا لهم جمال الطاعة ومغبة العصيان مبينًا لهم طريق الحق والصدق، فإذا استمع الناس وتنبهت عقولهم فرح عيسى وانشرح، أما إذا وجد أمامه قومًا عميت أبصارهم وختمت أفئدتهم، وران الصدأ والغباء على

---

(١) يو (١١ : ١ - ٤٤).　(٢) يو (٥ : ٣٠).

عقولهم وقلوبهم، فلا يؤمنون إلا بالخوارق والقوارع والأعاجيب، ولا يصدقون إلا القوة والإرهاب والتخويف، فلا مفر من الإتيان بمعجزة تصدع هؤلاء الغلف، وتردهم عن الغي والخلف.

يحدثنا الحواري يحونا أن خادمًا للملك كان ابنه مريضًا فأتى لعيسى وطلب منه أن يذهب إلى بيته ويشفي ابنه، وتبرم عيسى من طلب الرجل وضاق بأن تكون كل مهمته في الحياة تطبيب الناس وشفاء الأمراض «فقال له يسوع: لا تؤمنون إن لم ترو آيات وعجائب»[1]، ولكن الرجل ازداد إلحاحًا ورجاء، مما اضطر عيسى إلى الذهاب معه وشفاء ابنه، وهنا فقط آمن الرجل وأهل بيته برسالة عيسى.

وكثيرًا ما نرى عيسى يزداد به الضيق والتبرم من هذا الأسلوب لحمل الناس على الإيمان، فيرفض تمامًا القيام بأية معجزة مهما طلب القوم وألحوا في الرجاء، يروي لنا الحواري مرقس قصة إحدى المرات التي أصر فيها عيسى على عدم اللجوء إلى المعجزة لفرض الإيمان على الناس، يقول مرقس «فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه فتنهد بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية، الحق أقول لكم لن يعطي هذا الجيل آية، ثم تركهم ودخل السفينة ومضى إلى العبر»[2].

بل كثيرًا ما يصل الضيق والتبرم بعيسى إلى غايته، فلا يكتفي فقط بعدم القيام بالمعجزة بل يزجر طالبيها ويعنفهم، ويسبهم ويلعنهم على جهلهم وغبائهم، وعلى إلحاحهم لحمله وهو الرسول الكريم على اللجوء إلى هذا الطريق، تقول الأناجيل «حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم نريد أن نرى منك آية، فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية»[3].

---

(١) يو(ص ٤ : ٤٦ - ٥٣).　　(٢) متى (١٢ : ٣٨ - ٣٩)، لو ١١ : ٢٩).

(٣) متى (١٢ : ٣٨ - ٣٩)، لوقا (ص ١١ : ٢٩).

في هذه الحوادث المتكررة التي تواترت فيها روايات الأناجيل نرى عيسى زاهدًا في هذا الأسلوب لحمل الناس على الإيمان ولإرشادهم إلى طريق الله، بل نراه يضيق ويتبرم من هذه الوسيلة، ويرفض كثيرًا اللجوء إليها أو استعمالها، مؤكدًا أن طريق الله واضح مستقيم لكل من له عقل أو بصيرة، وأنه لا يحجب الله عن الناس إلا الفسق والفجور، والدنس والإثم، ولو تطهر الناس من شرهم وفسوقهم لما احتاجوا إلى الخوارق لإكراههم على الإيمان، ولاهتدوا إلى الحق بعقولهم وفطرتهم السليمة.

يقول الكتاب الكريم: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)** ﴾ (يونس : ١٠٨).

• حرصه على إخفائها:

وحتى عندما كان عيسى يقبل إلحاح الناس للإتيان بمعجزة، وعندما كان يستجيب له ربه فيجري على يديه الآية، فإنه كان حريصًا على ألا تعلن المعجزات أو تشيع بل كان يوصي دائمًا بإبقائها في طي الكتمان.

تحدثنا الأناجيل أن رجلاً أبرص أتى إلى عيسى وطلب أن يشفيه «فتحنن يسوع ومد يده ولمسه وقال له: أريد فاطهر فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص وطهر، فانتهره وأرسله للوقت وقال له: انظر لا تقل لأحد شيئًا»[١].

وعندما شفى عيسى أعميين قابلهما في الطريق، كرر لهما نفس التحذير، ألا يقولا لأحد. يقول الحواري متى «فقال لهما يسوع: أتؤمنان أني أقدر أن أفعل هذا، قالا له: نعم يا سيد، حينئذ لمس أعينهما قائلاً: بحسب إيمانكما ليكن لكما، فانفتحت أعينهما فانتهرهما يسوع قائلاً: انظرا لا يعلم أحد»[٢].

---

(١) مرقس (١ : ٤٠ - ٤٤)، متى (٨ : ٢ - ٤)، لوقا (٥ : ١٢ - ٤١).
(٢) متى (٩ : ٢٧ - ٣٠).

وحادثة ثالثة يرويها لنا مرقس، قصة أعمى شفاه عيسى، يقول مرقس عنه «فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية، وتفل في عينيه ووضع يديه عليه وسأله: هل أبصرت شيئًا؟ فتطلع وقال: أبصر الناس كأشجار يمشون، ثم وضع يديه أيضًا على عينيه وجعله يتطلع فعاد صحيحًا وأبصر كل إنسان جليًا، فأرسله إلى بيته قائلاً له لا تدخل القرية ولا تقل لأحد في القرية»[١].

في هذه الحوادث وأمثالها التي تتكرر في الأناجيل نرى مدى حرص عيسى على أن تظل معجزاته في طي الكتمان، لا يعلمها أحد، ولا يدري بها أحد، بل نرى عيسى في بعض الأحيان يبالغ في إخفاء معجزاته، وإبعاد أحداثها عن أعين الجماهير حتى أننا نراه في هذه الحادثة الأخيرة التي فتح فيها عيني الأعمى نراه قبل أن يقوم بمعجزته يأخذ بيد الأعمى إلى خارج القرية، بعيدًا عن الناس، وعن أعين الطفيليين والرقباء، فإذا اختلى بالرجل قام بشفائه من عجز عينيه، وبعد إتمام المعجزة يكرر عيسى تحذيره للرجل بأن يعود إلى بيته في هدوء وألا يدخل القرية مرة أخرى حتى لا يراه الناس سليم العينين، بل حتى إذا رآه أحد أهالي القرية خارجها بعد ذلك ولم يلحظ أنه هو الذي كان أعمى، فلا يقول له شيئًا.

هذا الاتجاه من عيسى يدعونا إلى التأمل، لماذا كان يحرص عيسى على إخفاء المعجزات وإبقائها في طي الكتمان، وعلى ألا يفعلها وسط الجموع أو بين الجماهير. هل كانت في معجزاته بعض ثغرات كان يخشى إذا أعيد سردها على الجماهير أن يلحظوا ما فيها من قصور ويتناولوها بالنقد والتجريح، خاصة وأن أغلب آثار تلك المعجزات كانت تعتمد على الإيحاء، وعلى إيمان الناس بقدرة عيسى على الشفاء، بحيث أن غير المصدقين لم تكن تفلح معهم المعجزة... نرى صدى لهذا الرأي في كثير من معجزات عيسى «قم وامض إيمانك قد

---

(١) مرقس (٨ : ٢٢ - ٢٦).

خلصك»، «إن آمنت ترين مجد الله»، و«بحسب إيمانكما ليكن لكما»، وغير ذلك كثير.

أم كان عيسى يختص بمعجزاته أشخاصًا معينين، قريبين إلى قلبه، يرتاح إليهم ويريد راحتهم، فيرفض منح هباته للآخرين، ويحرص على ألا تنتشر أخبارها بين الجموع حتى لا يزعجوه برغباتهم وطلباتهم، يحدثنا بترسون سميث عن معجزات عيسى فيقول: «كان المسيح حريصًا مقتصدًا في فعلها، ولم يكن قصده في صنعها إكراه القوم على الإيمان به، وقد استخدم القوة الإلهية بالأكثر للترويح عن البشر وإسعادهم»[(١)].

قد يكون في بعض معجزات عيسى ما يؤيد رأي سميث من أن عيسى كان يستخدم قوته المعجزية في الترويح عن البشر وإسعادهم، فبعض معجزاته لا علاقة لها بما بعثه به ربه فها هو ذا يدعى إلى عرس صديقته رفقة - عروس قانا الجليل - ويفرغ الخمر ويتضايق المدعوون وتخجل العروس وتتعرض للخزي أمام صواحبها، فيسخر عيسى قوته المعجزية لتحويل الماء إلى أعتق الخمور من أجل إسعاد المدعوين.

بل نجد حادثًا آخر نخرج منه بنفس المعنى والمدلول، يأتي جابي الجزية إلى عيسى ومعه بطرس ويطلب منهما دفع ما عليهما من مكوس، ويبحث عيسى وصديقه فلا يجدان معهما نقودًا في ذلك الوقت، وبدلاً من أن يطلبا إلى الجابي إمهالهما إلى وقت آخر تكون فيه معهما نقود، يأمر عيسى تلميذه قائلاً: «اذهب إلى البحر وألق صنارة والسمكة التي تطلع أولاً خذها، متى فتحت فاها تجد إستارًا[(٢)] فخذه وأعطهم عني وعنك»[(٣)].

---

(١) بترسون سميث: حياة يسوع - ترجمة حبيب سعيد ص ٧٨ .

(٢) عملة إسرائيلية قديمة.

(٣) متى (١٧ : ٢٤ - ٢٧).

ونحن لا نرى رأي سميث، فلا يمكن القول بأن معجزات عيسى كانت مسرحيات حواة أو ألاعيب سحرة، تسعد الناظرين، وتروح عن المشاهدين، نحن لا نرى هذه الوجهة من النظر بل الأصوب القول بأن رغبة عيسى في عدم إعلان معجزاته، وعدم الدعاية لها والتهويل فيها، راجع إلى رغبته في ألا تشغل المعجزات الناس عن جوهر الدين والرسالة، وفي ألا تكون محور اهتمام بالأشغال والأعراض، وتصبح الخوارق شغلهم الشاغل، وحديثهم بالليل والنهار، وتسليتهم الوحيدة مع عيسى، كلما حدثهم عن الله أو دعاهم إلى البر، سألوه المعجزة، وطلبوا منه الترويح، ثم جلسوا يستمتعون بمشاهدة الآيات والأعاجيب ونسوا شريعة الله وناموسه.

• الخلاف في حبكها:

هذه المعجزات الكثيرة لعيسى، والتي بالغ البعض في ترديدها وسردها، نلاحظ عدم اتفاق الرواة عليها، لا في الكيف ولا في الكم، ولا في الزمن ولا في الأسلوب، البعض يقتصد في سرد الأحداث، والبعض الآخر يغلو ويبالغ إلى درجة تفوق التصور، البعض يورد حوادث لا يوردها الباقون، والبعض الآخر يورد نفس الحادثة ولكن بطريقة أخرى تختلف كل الاختلاف عما أورده عليها غيرهم، بعضهم يؤيد المعجزة والبعض ينفيها، يقول الدكتور مول «جاء في (الابوكريفا) (وهي أناجيل غير معترف بها ولم تدمج في أسفار العهد الجديد المعتمدة) قصص معجزية لا تنسجم مع طبيعة المسيح كما نعرفها في الأسفار المشروعة، فهل نقدر أن نصدق مثلاً ما جاء في إنجيل توما من أن غلامًا صعق لأنه اصطدم بيسوع وهو بعد صبي»[1].

بل كثيرًا ما يشطح الخيال ببعض الرواة، ولكن لا يسعفه التصور، أو يخشى التكذيب فيطلق القول، ولا يقيد حديثه بشيء.

---

(١) مول: (رسل المسيح)- ترجمة حبيب سعيد ص ٢٣ .

البعض يؤكد أن عيسى أحيا صديقه ألعازر من الموت بعد بقائه في القبر طوال أربعة أيام، وهذا الحادث الكبير من أعظم معجزات عيسى، ومع ذلك فقد أغفل ذكره معظم كتاب الأناجيل فهل وقع هذا الحادث فعلا أم أنه كان من وحي خيال يوحنا.

حوادث مختلفة يؤكدها ذلك وينكرها هذا، ثم اقتصاد تارة، وتهويل ومبالغات تارات، وخيال جامح وأقوال بعيدة عن التصور ثم اختلافات وتناقضات.

كل ذلك جعل الناس يتشككون في صحة بعض معجزات عيسى، وفي مدى اتفاقها مع الواقع هل قام عيسى حقًا بهذه المعجزات؟ أم قام فقط ببعضها؟

● المعجزة والإيمان:

ولنتساءل الآن. هل نجحت معجزات عيسى في حمل الناس على الإيمان وهل أفلحت في إرشاد الناس إلى الطريق القويم؟ من المؤسف أن الوقائع قد أثبتت عكس ذلك، فلم تفلح المعجزة في إقناع المكابر، ولم تصلح الآية لتوجيه الغافل، ولم تُجْدِ القوارع في إرشاد من عميت أبصارهم وقلوبهم فعاشوا كالسوائم عن الحق غافلين. وتعترف الأناجيل بهذه الحقيقة، وتقرر في صراحة أنه لم يؤمن برسالة عيسى سوى نفر قليل، أما الكثرة الغالبة فقد أنكروا نبوته وحاربوه، حاربوه رغم المعجزات الكثيرة التي صنعها بينهم، ورغم الآيات المتعددة التي قام بها أمامهم. يقول الحواري يوحنا في أسى «ومع أنه قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به»[1].

وليت الأمر اقتصر على الجحود والنكران، أو توقف عند الإنكار والتكذيب، فلم يكتف القوم بذلك، لم يكتف اليهود بتكذيب عيسى وإنكار معجزاته، بل اعتبروا عيسى من الأنبياء الكاذبين الدعاة المخاتلين، الذين يلجئون إلى الحيل

---

(١) يو (١٢ : ٣٧).

والألاعيب لتأييد دعواهم، والذين يتحالفون مع المردة والشياطين لتدعيم شأنهم، كذبوا عيسى ونسبوا معجزاته إلى الجن والشيطان، بل جعلوه حليف «بلعزبول» رئيس الشياطين، انضوى عيسى تحت لوائه ليسخر له قوى مملكة الشيطان، ويخدع بألاعيبه بني الإنسان.

تحدثنا الأناجيل أنه أحضر إلى عيسى مجنون أعمى وأخرس فشفاه عيسى فأبصر وتكلم، ولما سمع اليهود بهذا الخبر «قالوا: هذا لا يخرج الشياطين إلا بلعزبول رئيس الشياطين»[1].

ومرة أخرى شاهد عيسى إنسانًا أخرس مجنونًا، فلما أخرج منه الشيطان تكلم الأخرس وكان تعليق الناس «برئيس الشياطين يخرج الشياطين»[2].

وحتى علماء اليهود وكتبتهم فقد كان لديهم نفس الاعتقاد عن عيسى حليف الشيطان، يقول مرقس «وأما الكتبة الذين نزلوا من أورشليم فقالوا: إن معه بلعزبول، وإنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين»[3].

اعتبروا عيسى حليف الشيطان واعتبروه ساحرًا ومشعوذًا يتقمصه الشيطان، يصف لنا الحواري يوحنا محاورة بين عيسى واليهود انتهت بإفصاح اليهود لعيسى عن رأيهم فيه «فأجاب اليهود وقالوا له: ألسنا نقول حسنًا إنك سامري وبك شيطان»[4].

هذا الكفر والإعنات من اليهود الذي طمست أفئدتهم وعميت أبصارهم، فلم يتوبوا إلى الله ويعودوا إلى الحق، رغم المعجزات والقوات التي أظهرها سبحانه لهم على أيدي رسوله عيسى عليه السلام، هذا الكفر والإعنات الذي قابل به اليهود عيسى، جعله يضيق بهم ويلعنهم لما وصلوا إليه من ضلال، يقول عنه الحواري متى «حينئذ ابتدأ يوبخ المدن التي صنعت فيها أكثر قواته لأنها

---

(١) متى (١٢ : ٢٣ - ٢٤).
(٣) متى (٩ : ٣٢ - ٣٤).
(٣) مرقس (٣ : ٢٢).
(٤) يو (٨ : ٤٨).

لم تتب، ويل لك يا كورزين، ويل لك يا بيت صيدا، لأنه لو صنعت في صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديمًا في المسوح والرماد، ولكن أقول لكم إن صور وصيدا تكون لهما حالة أكثر احتمالاً يوم الدين مما لكما، وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية، لأنه لو صنعت في سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم، ولكن أقول لكم إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالاً يوم الدين مما لك»[١].

لم تفلح المعجزات في بث الإيمان في النفوس، ولكن كانت لها في كثير من الأحيان نتائج عكسية، إذ اعتبروها ضربًا من السحر والشعوذة، واتصالاً بالجن والشياطين، بل إن الأناجيل تحدثنا أن كثيرين من تلاميذ عيسى أنفسهم، ارتابوا في معجزاته، وتشككوا في مصدرها، ولم يعودوا يمشون معه ظنا وارتيابا، يقول الحواري يوحنا «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه»[٢].

أنكر الناس معجزات عيسى، وعزاها بعضهم إلى الشيطان وتخفف البعض فأرجعها إلى دراية عيسى بالطب وتمرسه بشفاء الأمراض والأوجاع، يقول الصيدلي اليوناني فيلمون «عاش الناصري بين قومه شيخا للنطاسيين، ولم يكن غيره يعرف الكثير الذي وعاه هو عن الأجساد وعناصرها وخواصها، وكم من مرضى برئوا على يديه من أمراض استعصت على الإغريق والمصريين ويقال فيما يقال: إن عيسى زار الهند وبلاد ما بين النهرين، وإن الكهنة في تلك البلاد قد أطلعوه على ما يعلمون من أسرار تتصل بالأجسام.. وكذلك يمسح (أبولو)[٣] على القلب الفارغ (يقصد قلب عيسى) فينطقه بالحكمة»[٤].

ورأي ثالث ينكر المعجزات أكثر مما يؤيدها، ويعزوها إلى الإيحاء والوهم أكثر مما يعزوها إلى اليقين والواقع، يقول ول ديورانت «أكبر الظن أن هذه

(١) متى (١١ : ٢٠ - ٢٤).
(٢) يو ٦:٦٦ .
(٣) أحد آلهة اليونان القدامى.
(٤) انظر: جبران خليل جبران: عيسى ص ٢٠ .

المعجزات كانت تحدث في أكثر الأحوال بقوة الإيحاء أي بتأثير روح قوية واثقة من نفسها، في روح قابلة للتأثر.. وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية: أولهما أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى «إيمان» من يشفيهم، وثانيهما عجزه عن القيام بمعجزات في الناصرة، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه «ابن النجار» ولا يؤمنون بقواه غير العادية.. ويقال لنا عن مريم المجدلية إن سبعة شياطين قد أخرجت منها، أي أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) والظاهر أن هذه آلالام كانت تخف في حضرة عيسى، ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها، أما ابنة بايروس فقد قال المسيح عنها صراحة إن البنت لم تمت بل كانت نائمة ولعلها كانت مصابة بالشخوص (التخشب) أو داء الثبوت وهو مرض عصبي يفقد الإرادة، وتصلب العضلات، سببه مرض الجهاز العصبي المركزي، ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخور نفساني بعد أن يقوم بمعجزاته، وأنه كان يحاولها وهو كاره»[١].

ونلحظ في الأناجيل صدى هذا الرأي.. نرى عيسى يؤكد للأشخاص الذين استفادوا من المعجزات، والذين برئوا من العلل والأمراض، أن إيمانهم هو الذي شفاهم، إيمانهم فقط وليس شيئًا آخر، يقول عيسى «إيمانك خلصك»، «بحسب إيمانكما ليكن لكما»، «ثقي يا ابنة: إيمانك قد شفاك»، كما تحدثنا الأناجيل عن مرات كثيرة لم يستطع فيها عيسى الإتيان بمعجزة رغم رغبته في ذلك، فعندما ذهب إلى مقابلة هيردويس ترجى الملك أن يرى آية تصنع منه، فلما فشل عيسى، «احتقره هيروديس مع عسكره واستهزأ به»[٢].

أنكر اليهود معجزات عيسى وعزاها بعضهم إلى السحر والشعوذة وإلى الجن

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة - جـ ٣ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) إنجيل مرقس ٦: ٥، لوقا ٢٣: ٩ - ١١ .

والشياطين وإلى النطس والطب، وإلى الإيحاء والوهم، وصدق الناس هذه الشائعات والترهات، صدقوا الشائعات التي طمست معجزات عيسى وأنكرتها عليه، وأنصتوا إلى الترهات التي عزتها إلى العرافة والكهانة.

وكاد حساب المعجزات يحسب على عيسى وليس له، ويضاف إلى أخطائه لا إلى حسناته، لولا أن صوت الحق ارتفع مدويا يؤيد معجزات عيسى ويؤيد نسبتها إلى الله، لا إلى المردة أو الشياطين أو السحرة أو الطب أو الإيحاء، يؤيدها جميعا ويذكر منها ما فات الأناجيل ذكره، وهنا يصمت المنكرون، وينقطع دابر المتشككين، يورد القرآن الكريم قول عيسى لقومه بني إسرائيل ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (١).

يأتي القرآن حديث الرحمن فيرفض مجاراة المتشككين، ويسد أفواه المكذبين، ويرفع عن عيسى شبهات المضللين، وتأولات العابثين الذين لمزوه بالسحر والشعوذة، ورموه بالإفك والعرافة، واتهموه بمعاقدة الشيطان، يأتي القرآن فيمحوا عن عيسى هذه التهم والأباطيل ويشيد بمعجزاته التي أيده الله بها، بل يذكر معجزات لعيسى فات رواة الأناجيل ذكرها، كخلق الطير من الطين والإنباء بالغيب وهي معجزات قد تفوق معجزات الأناجيل، كل ذلك ذكره القرآن لعيسى فأعز به قدره، ورفع به شأنه، وجعله نعم الرسول الصادق الأمين.

• معجزات الآخرين:

ونتساءل.. هل اختص الله نبيه عيسى فقط بصنع الخوارق؟ أم أنه سبحانه

---

(١) آل عمران: ٤٩.

قد منح هذه القدرة لعديد من أنبيائه الآخرين لتكون دليلا على صدقهم، ومعينا لهم في صراعهم ضد المناوئين والمكذبين؟

الحقيقة التي تؤكدها كافة الكتب السماوية أن الله سبحانه قد أيد أنبياءه بمعجزات عديدة، كل ذلك بحسب الزمان الذي بعث فيه ذلك النبي وحسب طبيعة الشعب الذي أرسل إليه، معجزات من جنس ما برع فيه ذلك الشعب في ذلك الزمان، من نفس الجنس ولكن تفوقها في المرتبة درجات، برع قوم عيسى في الطب فأرسل إليهم النطاسي البارع، وبرع قوم موسى في السحر فأرسل إليهم المبهر القارع، وبرع العرب في اللغة فأرسل إليهم البليغ الجامع، وهكذا في سائر الأنبياء يؤيدهم الله بمعجزات تفوق ما برع فيه قومهم، حتى يصدقهم الناس ويصدعوا بالدليل والبرهان.

وفي عرض موجز نحاول سرد بعض المعجزات التي أيد الله بها أنبياءه الصالحين لتكون دليل صدقهم وبرهانا على إرسالهم.

● **إبراهيم:**

ونبدأ بإبراهيم أبي الأنبياء وخليل الرحمن وأول الداعين إلى التوحيد، إبراهيم هذا الذي ظهر الله له مرات عديدة وتحدث معه كما يتحدث الصديق إلى صديقه، تقول التوراة «ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له: أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملا، فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جدا، فسقط إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا: أما أنا فهوذا عهدي وتكون أبا لجمهور من أمم، وأثمرك كثيراً جدا وأجعلك أمما، وملوك منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا»[1] .

---

(١) تكوين (١٧ : ١ - ٧).

وأوفى الله بعهده مع إبراهيم فباركه وجعله أمة عظيمة، وتباركت فيه قبائل الأرض، وخرجت من صلبه شجرة الخير، شجرة الأنبياء والمرسلين، إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وهارون، وداود وسليمان، وعيسى ومحمد وغيرهم، كل هؤلاء أبناء إبراهيم يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [١].

دعا إبراهيم قومه إلى التوحيد، وحطم أصنامهم وأوثانهم، فكادوا له وصنعوا أتونا من النار وضعوه في سعيره، وبدلا من أن تحرق النار إبراهيم، أو تلهبه أو تؤذيه، جعلها الله برداً وسلاماً على خليله إبراهيم، فسار فيها إبراهيم يتبختر وكأنه يتمتع بنسمات الجنة.

ويقول سبحانه: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [٢].

● موسى:

وبعد إبراهيم يأتي موسى عليه السلام، كليم الله الذي ظهر له سبحانه وسط لهيب نار وتحدث إليه[٣]، وتكرر الحديث بين الله وكليمه موسى، تقول التوراة «ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه»[٤].

حول موسى العصا الخشبية الجامدة إلى حية كبيرة التهمت حيات سحرة فرعون وعرافيه، يحدثنا سفر الخروج عن هذه الآية «فقال له الرب: ما هذه في يدك، فقال: عصا، فقال اطرحها إلى الأرض، فطرحها إلى الأرض فصارت حية»[٥]. وفي القرآن ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)

(١) سورة النساء : ١٢٥ .
(٢) الأنبياء ٦٨ - ٧١.
(٣) خروج (ص ٣ : ٢ - ٦)
(٤) خروج (٢٣ : ١ - ١١).
(٥) خروج (٤ : ١ - ٥).

فوقع الحقُّ وبطل ما كانوا يعملون (١١٨) فغُلبوا هُنالك وانقلبُوا صاغرين ﴾(الأعراف: ١١٧ - ١١٩).

ومعجزة أخرى أمد الله بها موسى، هي ضرب يده بالبرص وشفائها في الحال، يقول سفر الخروج «ثم قال الرب لإبرام أيضًا أدخل يدك في عبك، فأدخل يده في عبه، ثم أخرجها وإذا بيده برصاء مثل الثلج، ثم قال له رد يدك إلى عبك فرد يده على عبه ثم أخرجها من عبه فإذا هي قد عادت مثل جسده»[١]. ويقول سبحانه عن موسى: ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين (١٠٨) قال الملأُ من قوم فرعون إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ﴾(الأعراف: ١٠٨ - ١٠٩).

ومعجز ثالثة فعلها موسى، حوّل الماء إلى دم، بل أحال نهرًا بأكمله إلى دم، يقول الله لموسى «تأخذ من ماء النهر، وتسكب على اليابسة، فصير الماء الذي تأخذه من النهر دمًا على اليابسة»[٢]. ومرة أخرى ضرب موسى النهر بعصاه أمام فرعون وجنوده فتحول ماءه إلى دماء، تقول التوراة عنه «رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده فتحول كل الماء الذي في النهر دمًا»[٣].

ورابعة ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق نصفين وانشق في وسطه طريق يابس، سار في وسطه موسى وجميع شعبه آمنين مطمئنين، تقول التوراة «ومد موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم»[٤].

وفي القرآن: ﴿ولقدْ أوحينا إلىٰ موسىٰ أنْ أسر بعبادي فاضربْ لهُمْ طريقًا في البحْر يبسًا لاَّ تخافُ دركًا ولا تخشىٰ (٧٧)﴾ (طه: ٧٧).

ومن معجزات موسى عليه السلام أنه كان يحيل الماء الفاسد المر إلى ماء

---

(١) خروج (٤ : ٦ - ٨).
(٢) خروج (٤ : ٩).
(٣) خروج (٧ : ٢٠ - ٢١)
(٤) خروج (١٤ : ٢١ - ٢٢).

عذب فرات، تقول التوراة عن موسى «فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذبًا»[١]، بل كان موسى يضرب الصخر الجاف بعصاه فتتفجر منه ينابيع المياه، يقول الله لنبيه موسى «ها أنا أقف أمامك هنا على الصخرة في حوريب، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب»[٢].

وكما أشبع عيسى الجياع أشبع موسى الجياع أيضًا، تحدثنا التوراة أن عشرات الألوف من بني إسرائيل كانوا مع موسى في الصحراء يتهددهم الموت من الجوع والعطش، وأن موسى دعا ربه أن يشبع بطون هؤلاء الجياع فاستجاب الله لنبيه العظيم وأمطرت السماء المن والسلوى، كان ينزل عليهم الخبز كل صباح واللحم مطهوًا كل مساء، فيطعمون ويشبعون هادئين ناعمين[٣].

وفي القرآن عن معجزتي إشباع الجياع وإرواء العطاشى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (الأعراف: ١٦٠).

والمقارنة هنا يقوم بها بنو إسرائيل بأنفسهم، إنهم يقارنون بين موسى وعيسى، ويطلبون من عيسى أن يأتيهم بمعجزات عظيمة كما فعل موسى، مؤكدين له أن معجزة تكثير الطعام التي قام بها لا تقارن بإنزال المن والسلوى من السماء كل صباح ومساء، يقول بنو إسرائيل لعيسى «قالوا له: فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك، ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا»[٤].

ويبدو في نظرهم أن عيسى قد فشل في مطاولة موسى، أو الوصول إلى شأوه ومرتبته عند قومه إذ إن اليهود تمسكوا برأيهم في أن موسى أعظم من

---

(١) إنجيل يوحنا (٦ : ٢٥ - ٣١).

عيسى، بل أعظم أنبيائهم أجمعين، تقول التوراة «ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهًا لوجه»[١].

وكم عقد اليهود المقارنات بين موسى وعيسى مؤكدين أن موسى أعظم كثيرًا من عيسى، بل إنه لا وجه للمقارنة في نظرهم بين موسى كليم الله، وعيسى الذي لا يعرف أهله أو نسبه، يورد القديس يوحنا في إنجيله قول اليهود: «نحن نعلم أن موسى كلمه الله، وأما هذا (عيسى) فما نعلم من أين هو؟»[٢].

ويقول سبحانه عن نبيه العظيم موسى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤).

• إيليا:

نبي الله إيليا، الذي يرجح المفسرون أنه إدريس عليه السلام الذي ورد ذكره في القرآن، اختصه جل وعلا بمعجزات كثيرة تماثل معجزات عيسى وموسى، أحيا عيسى الموتى وأحيا إيليا الأموات، ورفع عيسى إلى السماء وصعد إيليا أيضًا إلى السماء، وشق موسى البحر بعصاه وفلق إيليا المياه، وكانت دعوات إيليا تفتك بأعدائه دون انتظار.. يحدثنا كتاب الملوك الأول عن إحياء إيليا لأحد الموتى فيقول إن إيليا «قال: يا رب إلهي لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه فسمع الرب لصوت إيليا، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش»[٣].

ويحدثنا كتاب الملوك الثاني عن صعود إيليا حيًا إلى السماء فيقول: «وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء أن إيليا وأليشع (تلميذه) ذهبا من الجلجال.. وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما، فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء»[٤].

---

(١) تثنية (٣٤ : ١٢).
(٢) يو (٩ : ٢٩).
(٣) ملوك (١ ص ١٧ : ٢٠ - ٢٤).
(٤) ملوك (٢ ص ٢ : ١ ، ١١).

وكما فلق موسى البحر بعصاه، شق إيليا المياه وأحالها إلى يابس سار فيه هو وتلميذه أليشع «وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس».

كان إيليا لا يخشى أحدًا ولا يهاب كبيرًا أو أميرًا، كان يغضب للحق وينزل سخطه على الظالمين، ولو كانوا ملوكًا أو سلاطين، بل لقد منحه الله السطوة عليهم فكانوا يهابونه ويرهبونه، لأنه كان ينزل دعواته عليهم فيميتهم ويحرق أتباعهم بنار السماء، يروي لنا كتاب الملوك الثاني أن إيليا غضب على موآب ملك إسرائيل في ذلك الوقت، وأخذ يندد بظلمه وآثامه فاغتاظ الملك وأرسل أحد قواده ومعه خمسون جنديًا للقبض على إيليا وإحضاره إليه، ولما أتوا إلى إيليا دعا الله أن ينزل نارًا من السماء فتحرق أعداءه، واستجاب الله لدعاء نبيه وأنقذه من أيدي غرمائه، وأنزل نارًا من السماء التهمتهم أجمعين، يقول كتاب الملوك الثاني «فأجاب إيليا وقال لرئيس الخمسين إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكل أنت والخمسين الذين لك، فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له» ثم يذهب إيليا شامخًا إلى الملك الظالم، ويلعنه ويطلب له الموت حتى يستريح شعبه من آثامه، يقول إيليا للملك، «السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتًا تموت» ويستجيب الله دعاء نبيه إيليا فيموت الملك في الحال «فمات حسب كلام الرب الذي تكلم به إيليا»[1].

هكذا تكون منعة الأنبياء، وهكذا تكون قدرتهم أمام الولاة والسلاطين، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا خشية لإنسان طمعًا أو خوفًا، ولكن الخشية والرغبة والثواب والعقاب في يد خالق الكون ورب العباد.

يقول سبحانه عن إيليا ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)** ﴾ (مريم : ٥٦ - ٥٧).

---

(١) ملوك (٢ ص ١ : ٩ - ١٧).

• **أليشع:**

وبعد إيليا يأتي تلميذه أليشع، أحد أنبياء اليهود، منحه الله من المعجزات الشيء الكثير، أحيا الموتى، وأبرأ البرصى، وأشبع الجياع وأعاد البصر للعميان، وفلق البحر وشق فيه طريقًا، وأحال المياه الرديئة إلى مياه عذبة.

تحدثنا التوراة أن أليشع كان ينزل ضيفًا على إحدى الأرامل، وأثناء وجوده عندها مات ابنها فأحياه أليشع، تقول التوراة «ودخل أليشع البيت وإذا بالصبي ميت مضطجع على سريره، فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلى إلى الرب.. فعطس الصبي سبع مرات ثم فتح الصبي عينيه»(١).

كان أليشع يشفي البرصى، بل ويصيب بالبرص الأصحاء، شفى أليشع نعمان قائد جيش ملك آرام من البرص، فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر(٢) وانحرف خادم أليشع عن الطريق المستقيم فدعا عليه سيده بالبرص فخرج من أمامه كالثلج(٣).

فتح أليشع أعين العميان، فرادى وجماعات، وضرب الآثمين بالعمى، رد البصر إلى غلام أعمى «وصلى أليشع وقال: يا رب افتح عينيه فيبصر، ففتح الرب عيني الغلام فأبصر»(٤).

كما أبرأ في مرة واحدة عددًا كبيرًا من العميان «قال أليشع يا رب افتح أعين هؤلاء ففتح الرب أعينهم فأبصروا»، وكان لأليشع القدرة على ضرب الأشرار بالعمى، «صلى أليشع إلى الرب وقال: اضرب هؤلاء الأمم بالعمى، فضربهم بالعمى كقول أليشع»(٥).

- وكان لأليشع القدرة على تكثير الطعام فأشبع الجموع بقليل من الخبز

---

(١) ملوك (٢ ص ٤).
(٢) ملوك (٢ ص ٥ : ١ - ١٤).
(٣) ملوك (٢ ص ٥ : ٢٠ - ٢٧)
(٤) ملوك (٢ ص ٦ : ١٧).
(٥) ملوك (٢ ص ٦).

والسويق، تقول التورة «وجاء رجل من بعل شلشه وأحضر لرجل الله (أليشع) خبز باكورة عشرين رغيفًا من شعير وسويقًا في جرابه.. فقال أعط الشعب فيأكلون لأنه هكذا قال الرب: يأكلون ويفضل عنهم فجعل أمامهم فأكلوا وفضل عنهم حسب قول الرب»[١].

والمياه الرديئة المجدبة أحالها أليشع إلى مياه عذبة مخصبة تجري بالحياة، اشتكى إليه بعض الناس من أن موقع مدينتهم حسن ولكن مياهها رديئة فاسدة مما جعل أرض المدينة مواتا وجدبا، وجعل الحياة فيها ضنكا وبؤسا، فصلى أليشع للرب «وقال: هكذا قال الرب: قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضاً موت ولا جدب، فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول أليشع الذي نطق به»[٢].

• حزقيال:

أما نبي الله حزقيال فقد أحيا الله على يديه آلاف الموتى ورد الحياة إلى آلاف الراقدين، وبعثهم من قبورهم بعد أن طال رقادهم وتحللت أجسادهم، يقول حزقيال «كانت عليَّ يد الرب فأخرجني بروح الرب وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنة عظاما وأمرني عليها من حولها وإذا هي كثيرةٌ جداً على وجه البقعة وإذا هي يابسة جداً، فقال لي يا ابن آدم أتحيا هذه العظام، فقلت يا سيد الرب أنت تعلم فقال لي: تنبأ على هذه العظام وقل لها: أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب، هكذا قال السيد الرب لهذه العظام، هأنذا أدخل فيكم روحا فتحيون، وأضع عليكم عصبا وأكسيكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعلمون أني أنا الرب، فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعش فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه، نظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح، فقال لي

(١) ملوك (٢ ص ٤ : ٤٢ - ٤٤). (٢) كتاب الملوك الثاني ص ٢: ١٩ - ٢٢ .

تنبأ للروح، تنبـأ يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السـيد الرب هلم يا روح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليـحيوا فتنبـأت كما أمرني فـدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً» [١] .

إن معجزة حزقيال هنا تفوق كل معجزات عيسى، ففضلا عن أن عدد الموتى الذين أحياهم قد يصل إلى الآلاف فـإنه قد طال بهم الزمن في القبور ،وتوالت عليـهم السنون حتى تحـللت أجسـادهم وتناثرت عظامـهم، وتآكلت لحومـهم وجلودهم، وتلاشت عـروقهم وحواسـهم، واستحـالوا إلى شذرات كـالرماد، ولكن نبي الله حزقيال تمكن بقدرة الله، وبروحه سبحانه وكلمته، أن يلم شعث الشذرات،وأن يجـمع عظام كل شخص منها على حـدة،ثم كسا العظام لحـما وجلداً وعصبا، وأجرى فيهـا الخلايا والعروق والدماء،ثم أعاد إليها الروح التي فارقتها سنوات وسنوات،إن معجزة حزقيال أقرب إلى الخلق منها إلى الإحياء.. ولكن ما فـضل عيسى وحـزقيال، الفـضل لله الخالق البـارئ، المحي المميت، صاحب المعجزات ومصدر الآيات.

يقول سبـحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥) .

• أخنـــوخ:

وهذا نبي الله أخنوخ، لعله سـيدنا الخضـر، صعد إلى السمـاء كما صـعد عيسـى تقول التوراة «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجـد لأن الله أخذه» (تك ص ٥: ٢٤).

• شـمـشـون:

وهذا شمـشون الجبـار يعطيه الله قوة خـارقة يسحق بهـا في الحروب آلاف

---

(١) حزقيال ص ٣٧: ١ - ١٠ .

الرجال وكأنهم البعوض أو الذباب، ويقابل الأسود والوحوش فتفر منه مذعورة كالفئران، فإذا وقعت في قبضته فتك بها في لحظات، وإذا استعصى عليه جبل أو صخر فتته بأصابعه كالرمال.

- **سليمان:**

وسليمان بن داود أحكم الرجال، تحدث الناس على مر العصور بالحكمة الفائقة التي منحها إياه العلي القدير، كما تحدثوا بقدرته على الحديث إلى الطيور والنمل ومخاطبة مختلف المخلوقات وتسخير الريح والشياطين لخدمته، يقول سبحانه: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ (الأنبياء ٨١ -٨٢).

- **يونان:**

وهذا يونان النبي الذي سماه القرآن يونس عليه السلام، يبتلعه حوت ضخم ويبقى يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، ثم يخرج سليمان معافا من بطن الحوت لم يمسه بسوء وكأنه في رحلة في عرض البحر داخل أحد اليخوت[1].

وفي القرآن عنه: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (الصافات: ١٣٩ - ١٤٤).

وهذا عيسى يشبه نفسه بيونان، ويطلب من قومه أن يعتبروه نبيا مثل يونان، وأن يكرموه كما أكرموا يونان، وأن يصدقوا معجزاته كما صدقوا معجزات يونان، طلب اليهود من عيسى أن يظهر لهم آية تدل على صدقه ولكنه أجابهم قائلا «هذا الجيل شرير يطلب آية ولا تعطي له آية يونان النبي، لأنه كما

---

(١) انظر يونان ص ١، ص ٢ .

كان يونان النبي آية لأهل نينوي، كذلك يكون ابن الإنسان (عيسى) أيضاً لهذا الجيل»[١].

هذه بعض المعجزات التي أيد الله بها أنبياءه وأولياءه ومنهم عيسى عليه السلام فكيف يدعى المضللون أن لمعجزات عيسى شأناً آخر يرفعه عن سائر البشر؟

• معجزات الحواريين:

ولماذا نقتصر على ذكر معجزات الأنبياء، والأناجيل تروي لنا أن تلاميذ عيسى كانوا يقومون بمعجرات كثيرة لا تقل عن معجزات عيسى بل تفوقها في بعض الأحيان، فكم من أمراض شفوها وكم من شياطين شريرة تلبست أجساد الناس فأخرجوها، وكم من أموات أعادوا إليها الروح.

هكذا تلاميذ عيسى، يحيون ويميتون، ويأتون بالخوارق التي يعجز عنها الرسل والأنبياء ولا عجب في هذا ولا استغراب. وعيسى نفسه يعترف بأن معجزات تلاميذه تفوق معجزاته فيقول «من يؤمن بي فالأعمال يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها» [٢].

• بطرس:

خليفة عيسى يشفي المقعدين، ويبرئ العرج، ويحيي الموتى، ويميت الأحياء، يحدثنا كتاب أعمال الرسل أنه عندما كان يتجول بطرس بين قرى اليهودية للتبشير شاهد رجلا مفلوجا يرقد على سريره منذ ثماني سنوات، فأمره بطرس قائلا «قم وافرش لنفسك، فقام للوقت ورآه جميع الساكنين في لده وسارون»[٣].

---

(١) لوقا ١١: ٢٩ - ٣٠.

(٢) إنجيل يوحنا ص ١٤: ١٢.

(٣) أعمال الرسل ص ٩: ٣٢ - ٣٥.

وأعرج آخر شفاه بطرس، ولد هكذا من بطن أمه، وكانوا يضعونه على باب الهيكل يسأل الناس الصدقات، فلما رآه بطرس، أمسك بيده اليمنى وأقامه «ففي الحال تشددت رجلاه وكعباه فوثب وصار يمشي» (١).

ويروي لنا كتاب أعمال الرسل قصة الأموات التي أحياها بطرس، فتاة اسمها طابيثا من بلدة يافا، ماتت وغسلوها وكفنوها وأتت النسوة والأرامل يبكين عليها ويولولن، ثم أتي بطرس «فأخرج بطرس الجميع خارجا وجثا على ركبتيه وصلى ثم التفت إلى الجسد وقال: يا طابيثا قومي، فقدمت علينيها ولما أبصرت بطرس وجلست فناولها يده وأقامها، ثم نادي القديسين والأرامل وأحضرها حية» (٢).

ويروي كتاب أعمال الرسل أن ظل خيال بطرس كان إذا وقع على أحد المرضى فإنه كان يكفي لشفائه من أعضل الأمراض وأشد الأوبئة، يقول الكتاب «إن الناس كانوا يحملون المرضى خارجا في الشوارع ويضعونهم على فرش وأسرة حتى إذا جاء بطرس يخيم ولو ظله على أحد منهم» (٣).

وحادث عجيب يرويه كتاب الأعمال، في معرض الحديث عن قدرة التلاميذ على سلب أرواح الناس بسبب وبغير سبب، ومن الخبيث والطيب، ومن الطالح والصالح.

يحدثنا الأصحاح الرابع من الكتاب المذكور أن التلاميذ تركوا العمل كعشارين وجباة وصيادي أسماك، وتفرغوا لوظيفة الكهانة، ولهذا كان على أتباعهم إعالتهم، بل كان الأتباع يقومون ببيع أملاكهم ويأتون بأثمانها ويضعونها تحت أقدام التلاميذ ليتصرفوا فيها حسبما يشاؤون، يقول الأصحاح عن هؤلاء التلاميذ الذين يدعوهم رسلا «لم يكن فيهم

(١) أعمال ٣:١ - ٨.
(٢) أعمال ٩:٣٦ - ٤١.
(٣) أعمال الرسل ص ٥:١٥.

أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل»[١] وحدث أن أحد هؤلاء الأتباع الصالحين باع وزوجته ملكهما، وأتيا بالثمن ووضعاه عند أرجل التلاميذ، ولكن نظرا لحاجتهما فقد احتفظا بجزء يسير من هذا الثمن يسدان به بعض أعوازهما فماذا كان الجزاء.. نترك سفر الأعمال يروي لنا قصة هذا المسكين وزوجه، يقول السفر «ورجل اسمه حنانيا وامرأته سفيرة باع ملكا واختلس من الثمن وامرأته لها خبر ذلك وأتى بجزء ووضعه عند أرجل الرسل، فقال بطرس: يا حنانيا، لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من الحقل، أليس وهو باق كان يبقى لك، ولما بيع ألم يكن في سلطانك فما بالك وضعت في قلبك هذا الأمر، أنت لم تكذب على الناس بل على الله، فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات، وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك، فنهض الأحداث وألقوه وحملوه خارجا ودفنوه، ثم حدث بعد مدة نحو ثلاث ساعات أن امرأته دخلت وليس لها خبر ما جرى فأجابها بطرس: قولي أبهذا المقدار بعتما الحقل؟ فقالت: بهذا المقدار، فقال لها بطرس؟ ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب، هوذا أرجل الذين دفنوا رجلك على الباب وسيحملونك خارجا، فوقعت في الحال عند رجليه وماتت، فدخل الشباب ووجدوها ميتة فحملوها خارجا ودفنوها بجانب رجلها»[٢].

يقول سفر الأعمال معلقا على هذا الحادث المروع «فصار خوف عظيم على جميع الكنيسة، وعلى جميع الذين سمعوا بذلك»[٣]. والقصة بذاتها تغني عن كل تعليق..!!

---

(١) أعمال ٤: ٣٤ - ٣٥.
(٢) أعمال الرسل ص ٥: ١ - ١٠.
(٣) أعمال ٥: ١١.

● **بولس:**

وهذا بولس لم يكن تلميذا لعيسى ولم يشاهده البتة، بل كان عدوا لأتباع عيسى، مضطهدا لهم، ثم صار فجأة داعيا لعيسى وصديقا للتلاميذ، يقولون عن بولس هذا إنه كان يبرئ المرضى ويحيي الموتى. وإنه كان محصنا ضد كافة أنواع الأذى لا تقربه الحيات ولا تناله العقارب.

هذا بولس تنقض عليه حية رقطاء تريد عقره، ويتصور الناس أنه هالك لا محالة، ولكنه ينفضها عنه بيده كأنها حشرة ضئيلة ويمضي في طريقه كما كان(١).

وفي الشفاء كان بولس يزيل أعضل الأمراض، ويشفي العرجى والمشلولين والمقعدين، يروي لنا سفر الأعمال قصة أحد المقعدين الذين شفاهم بولس فيقول «وكان يجلس في لسترة رجل مقعد من بطن أمه ولم يمش قط، هذا كان يسمع بولس يتكلم، فشخص إليه وإذ رأى له إيمانا ليشفي قال بصوت عظيم: قم على رجليك منتصبا، فوثب وصار يمشي»(٢).

بل إن الأناجيل تؤكد أن قدرة بولس على شفاء الأمراض كانت أعظم من قدرة عيسى، فلكي يتمكن عيسى من شفاء المريض كان يذهب إليه بنفسه ويصلي عليه ويدعو الله له بالشفاء، أما بولس فكان جسده كله قوة وعافية وبركة، كانت معجزاته غير عادية، فلم يكن من اللازم أن يذهب بنفسه إلى المريض ليراه أو يلمسه، بل كان يكفي أن يرسل بولس إلى المريض منديلا أو سروالا أو أي شيء لامس جسد بولس المبارك، ثم يوضع الشيء على المريض فيشفى في الحال، ولاشك أن هذا لم يكن يستطيعه عيسى، يقول كتاب الأعمال «كان الله يصنع على يدي بولس قوات غير المعتادة، حتى كان يؤتى عن جسده بمناديل أو مآزر إلى المرضى فتزول عنهم الأمراض وتخرج الأرواح الشريرة منهم»(٣).

(١) أعمال الرسل ص ١٠. (٢) أعمال ٤:٨ - ١٠.

(٣) أعمال الرسل ص ١٩: ١١ - ١٢.

حتى الموتى أحياهم بولس، هذا شاب اسمه فتيخوس وقع من مكان عال وحمل ميتا فنزل إليه بولس، واعتنقه فعاش الفتى «وأتوا بالفتى حيا وتعزوا تعزية ليست بقليلة» (١) .

وهذا فيلبس أحد التابعين يخرج الشياطين، ويشفي العرجى والمفلوجين، يقول كتاب الأعمال عنه «وكان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الآيات التي صنعها لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم وكثيرون من المفلوجين والعرج شفوا، فكان فرح عظيم في تلك المدينة» (٢) .

وهكذا بالنسبة لباقي التلاميذ، تمثلوا بعيسى ففاقوه، وقلدوا معجزاته فبزوه، يقول كتاب الأعمال عن معجزات التلاميذ «وحدثت على أيدي الرسل آيات وعجائب كثيرة في الشعب».

• معجزات الكاذبين:

إتيان المعجزات والأعاجيب لم يقتصر على عيسى وأتباعه أو سائر الأنبياء، بل لقد استطاع أفراد كثيرون شفاء الأمراض واتيان الخوارق، وأتى إليهم الأتباع من كل حدب وصوب يتمسحون بمنازلهم ويتبركون، ويتلمسون منهم الدعوات والبركات، بعض هؤلاء أولياء الرحمن وأكثرهم أولياء الشيطان، يصنعون خوارق تذهل العقول وتُشْدِهُ الأبصار، يسيرون على النار ويأكلون الزجاج، ويخلقون الطيور، ويقطعون الأجساد بالسيوف ثم يجمعون الأشلاء، ويعيدون تكوين الإنسان ويردون الروح، ويشفون مختلف الأمراض ويضربون الناس بالأمراض ومختلف أنواع الإيذاء.

هؤلاء الكاذبون، أنبياء الجان، وأولياء الشيطان، ضل من أفعالهم الكثيرون، وآمن بقدرتهم الكثيرون، خدعتهم الآية وأسكرتهم الخارقة فانساقوا إلى الإيمان

---

(١) أعمال ٢٠: ٩ - ١١ .   (٢) أعمال ٨: ٦ - ٨ .

بهؤلاء المخادعين المخاتلين، وانضووا تحت لوائهم وانخرطوا في طاعتم، ورفعوهم إلى مرتبة النبوة بل قدسوهم ومجدوهم وألهوهم.

ويعترف عيسى نفسه بهذه الحقيقة، ويحذر الناس من الانسياق وراء هؤلاء الكاذبين الذين يدعى كل منهم أنه نبي الله أو أنه مسيح الله، وأنه بعض الله أو ذات الله، ثم يخدع الناس بآياته ومعجزاته، ويضلل حتى المؤمنين والمختارين، يقول عيسى «سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكي يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً» [١] .

ويقول أيضاً «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين» [٢] .

فهل هؤلاء جميعا آلهة؟

• معجزات محمد ﷺ:

في غزوة الأحزاب كان المسلمون قد أصابتهم مجاعة شديدة، وكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه، فأرسلت عمرة ابنة رواحة ابنتها بحفنة تمر عجوة في ثوبها إلى زوجها وأخيها، فوجدت الرسول جالسا في أصحابه، فأخذه في كفيه ونثره على ثوب بسيط له وقال لجعال بن سراقة: اصرخ يا أهل الخندق، هلم إلى الغداء، فاجتمعوا عليه يأكلون منه، حتى صار أهل الخندق وإنه ليفيض من أطراف الثوب.

وفي غزوة تبوك تتكرر معجزة الإشباع، أرمل الناس إرمالا شديدا [٣] فنادى منادى الرسول: من عنده فضل زاد فليأت به، وأمر بالأنطاع فبسطت، فجعل الرجل يأتي بوعاء الدقيق أو السويق أو التمر وكل ذلك قليل، ثم توضأ وصلى ركعتين ودعا الله، ونادى مناديه: هلموا إلى الطعام خذوا منه حاجتكم، فأقبل

---

(١) مرقس ص ١٣ : ٢٢ . (٢) متى ص ٢٤ : ١١ .

(٣) أي نفد الطعام .

الناس فجعل كل من جاء بوعاء ملأه وأخذ الناس يتزودون حتى نهلوا عن آخرهم، حتى كان آخر ذلك أن أخذت الأنطاع ونثر ما عليها [١] .

وعن أنس بن مالك أن النبي عليه السلام أطعم ثمانين رجلا من أقراص من شعير أتى بها أنس تحت إبطه.

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال: كنا عند النبي ثلاثين ومائة وسوى لنا شاة، ثم أعطى لكل منا حزة (أي قطعة)، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين.

ضرب موسى الصخر بعصاه فانفجر منه الماء، أما محمد فقد نبع الماء من بين أصابعه فارتوى الناس وتوضأوا واغتسلوا مرات ومرات. . .

عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء فأتى الرسول بإناء فوضع يده فيه، وأمر الناس بأن يتوضأوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس عن آخرهم.

كما يروي الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله أنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي بين يديه ركوة [٢] فتدافع الناس نحوه؟ فقال: مالكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

وفتح عيسى عيني الأعمى، وأتى محمد بنفس المعجزة، عن حبيب ابن فديك أن أباه ابيضت عيناه فكان لا يبصر بهما شيئاً، فنفث رسول الله في عينيه فأبصر، فرأيته يدخل الإبرة وهو ابن ثمانين. وكان عليه الصلاة والسلام مكشوفا عنه الحجاب، يعلم مالا يعلمه الناس، أهدت إليه زينب بنت الحارث شاة مطهية

---

(١) انظر المقريزي أمتاع الأسماع ص ٢٣٥ . (٢) قليل من الماء.

فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها، وتناول النبي الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، وكان بشر ابن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول فأما بشر فأساغها وازدردها وأما الرسول فلفظها وهو يقول: إن هذ العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا زينب فاعترفت وقالت: لقد بلغني من قومي (اليهود) مالم يخف عليك فقلت: إن كان ملكا استرحت منه، وإن كان نبيا فسيخبر، ومات بشر من أكلته هذه.

ويشاء العلي القدير أن يؤيد رسوله الكريم بالمعجزات التي تدفع أذى الكفار، وترد غوائل شرورهم، عزم المشركون على قتل الرسول وأجمعت القبائل على ذلك، فترك محمد لهم مكة وهاجر وصاحبه أبو بكر إلى المدينة، وفي الطريق لاحقهما الكفار، فلجأ الصاحبان إلى غار ثور، يستريحان فيه قليلا من عناء الطريق، وأقبل بعض الكفار يتسلقون الغار، ثم عادوا أدراجهم، فسألهم أصحابهم: مالكم لم تدخلوا الغار ولم تنظروا فيه؟ قالوا: إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد، وقد رأينا حمامتين وحشيتين قد باضتا بفم الغار، وشجرة قد تدلت فروعها إلى فوهة الغار ولا سبيل إلى الدخول فيه من غير إزالة هذه الفروع، فعرفنا أن ليس فيه أحد فانصرفنا.

هذه المعجزة ذات دلالة كبيرة، فقد أراد الله حماية رسوله ونصرة دعوته، حتى إذا لجأ النبي وصاحبه إلى الغار أسرعت العنكبوت إلى نسج بيتها تستر به من في الغار، وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه، ونمت في الحال شجرة كبيرة تدلت بفروعها إلى فوهة الغار، حدث كل ذلك في فترة قصيرة لا تتجاوز ساعات وقانون الطبيعة يجعله محتاجا إلى سنوات. يقول القرآن للكافرين ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا**

السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) .

وبعد خروج محمد وصاحبه من الغار لحق بهما أحد الكفار بسلاحه وفرسه فلما دنا سراقة منهما دعا عليه الرسول، فرسخت أقدام فرسه في الأرض، فصرخ سراقة إلى الرسول: يا محمد ادع الله أن ينطلق فرسي فأرجع عنك وأرد من ورائي، فدعا الرسول ربه فأطلق سراقة وفرسه فرجع، وهنا وقفة صغيرة.. كافر يلاحق الرسول بسلاحه وفرسه يبغي قتله والقضاء على دعوته، وبدلا من أن يدعو محمد ربه فينزل نارا من السماء تحرق الرجل كما فعل نبي اليهود إيليا، أو يدعو على الرجل بالموت كما فعل بطرس خليفة عيسى، يكتفي الرسول الكريم بالدعاء لربه أن يكف عنه أذى الرجل وأن يوقف شره حتى يتم دعوته، ولو أن الرسول دعا على الرجل بالإحراق أو الموت لكان له عذره، فهذا الكافر أتى وراءه يبغي قتله فاستحق أن يرتد سهمه إلى نحره وأن يهلك جزاء جرمه، أما من أحرقهم إيليا فلم يكونوا يبغون قتله بل طلبوا منه فقط أن يصحبهم إلى الملك، أما الرجل وزوجه اللذان أماتهما بطرس لمنعهما عنه جزءا يسيرًا من أملاكهما بعد أن أعطياه معظمها فقصة نادرة تتحدث بها الأجيال.. بل إن الرسول الكريم حين علم بعدول سراقة عن قصده ورجوعه إلى رشده. دعا الله فأطلقه وفرسه فعاد سالما إلى أهله.

ومعجزة عظيمة أخرى اختص الله بها نبيه محمدا وفضله بها وبغيرها على سائر الأنبياء، تلك هي معجزة الإسراء والمعراج، فبينما كان الرسول نائما على فراشه بمكة إذ أتاه جبريل فأيقظه وخرج معه، فإذا أمامهما دابة بيضاء تدعى البراق، ركبها الرسول وجبريل خلفه، وطارت بهما الدابة حتى انتهيا إلى بيت المقدس، فوجد فيه الرسول نفرا من إخوته الأنبياء بينهم إبراهيم وموسى وعيسى فصلى الرسول بهم إماما. يقول القرآن عن معجزة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ

(١) سورة التوبة: ٤٠ .

بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) .

وعندما انتهى الرسول من الصلاة في بيت المقدس، عرج به جبريل إلى السماء، وأخذ يرتقي السماوات السبع سماء سماء، حتى تجاوزها إلى سدرة المنتهى، وإلى قاب قوسين أو أدنى من العرش العظيم، هناك حيا الرسول ربه: التحيات لله، والصلوات والطيبات. وأجاب الرحمن مصطفاه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وقال الرسول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. وفي هذه اللحظات الخالدة التي وقفها محمد عليه الصلاة والسلام بين يدي رب العزة والجلال فرضت الصلوات الخمس على الأمة الإسلامية.

ويتحدث القرآن عن معجزة المعراج ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢) .

• المعجزة والرسالة:

إن الإيمان بالله تحت ضغط المعجزة أو الآية إيمان ناقص، مبعثه الخوف والرهبة، هو إيمان المكره وليس إيمان الواثق، ومن ثم فهو إيمان ضعيف متهاو لا يثبت أمام الأحداث والتجارب ولا يبقى مع الأيام، تحدثنا الأناجيل أنه عندما كان عيسى يصنع المعجزات كانت تأخذ المشاهدين الدهشة والخوف والرهبة،

(١) سورة الاسراء: ١ .   (٢) سورة النجم: ١ - ١٨ .

«فأخذ الجميع خوف» (١) . «فبهت الجميع» (٢) وهكذا . . .

هذا الإيمان المفروض غالبًا ما يكون مؤقتا سرعان ما يزول بزوال مؤثراته، فبمجرد انتهاء المعجزة وتلاشي عوامل الخوف أو الرهبة أو الإعجاب يعود الناس إلى الكفر والتكذيب والبهتان مرجعين المعجزة إلى السحر أو السكر أو أحد عوامل الطبيعة، يقول تبارك وتعالى: ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** ﴾ (٣) .

هذا عن المشاهدين، الذين رأوا المعجزة بأعينهم ولمسوها بحواسهم، أما من اقتصر على السماع فسيكون أقل تصديقا وأشد إنكارا وتكذيبا . . وشاهدو المعجزات قليلون إذا قورنوا بمعاصريهم من الأهلين، وبغيرهم من البشر في شتى البقاع، فكيف يؤمن هؤلاء بمعجزات لم يشاهدوها بأعينهم، ولم تحسها أجسادهم؟ بل تناقلتها الألسنة من مكان إلى مكان، وزادت فيها وأنقصت منها حسبما أراد الراوي هنا وهناك . . وحتى إذا شاهد المعجزة معظم أمة النبي وهذا محال، فالمعجزة دورها تاريخي، غالبا ما ينتهي أثرها بالجيل الذي حدثت فيه، ونادرا ما يمتد إلى جيل لاحق، ذلك أن مرور الوقت ينال من تأثيرها وآثارها ويفقدها روعتها وحرارتها فتصير في عداد الروايات والأساطير بلا أدلة أو براهين. هكذا تندثر المعجزات ولكن تبقى الرسالة على مر الأجيال، شاملة جميع الناس، رسالة الحق والصدق وشريعة الخير والبر، لا تحتاج إلى معجزة ولا تعوزها آية، يقول الدكتور نظمي لوقا «إن الحقيقة آية نفسها، تحمل برهانها في مضمونها فيطمئن إليها العقل ويبدو ما يباينها هزيلا

---

(١) لوقا ص ٧ : ١٧ . (٢) لوقا ص ٩ : ٤٣ .

(٣) سورة الحجر ١١ - ١٥ .

واضح البطلان» [١] .

من أجل هذا وإيمانا من الإسلام بقصور هذا الأسلوب في تأييد الشرائع والرسالات وخاصة في أطوار النضج العقلي وانفتاح الأذهان، فقد رفض محمد عليه الصلاة والسلام أن تكون الخوارق - رغم ما أعطاه الله منها - رفض أن تكون دعامة رسالته أو آية نبوته، يقول جل وعلا: ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً** ﴾ [٢] .

جاءت الخوارق طائعة مختارة لنبي الإسلام، ولكنه رفض أن تكون برهان صدقه أو دليل شريعته، مات إبراهيم فخسفت الشمس، فتصايح المسلمون لروعة المعجزة التي خص الله بها نبيهم العظيم فجعل الشمس تخسف لموت ابنه، وسمعهم النبي، أترى فرط حبه لوحيده، وشدة جزعه لوفاته قد جعله يتعزى بمشاركة السماء له في حزنه؟ أو يسكت على الأقل مشغولا بمصابه، أو يعذر الناس لبساطتهم وانبهارهم بآيات الطبيعة؟ كلا. فليس هذا محمد، ليس هذا يكون موقف الصادق الأمين، فلم ينس في ساعة حزنه العميق أمانة الهداية وصدق الرسالة التي تتمخض لإقناع العقل وانتهر الناس معلنا فيهم كلمات ربه «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة».

إن العقل السوي يجد امتهانا له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى، فالدعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها، لهذا كان لابد للعقل البشري في طور نضوجه ورشده أن تأتيه الدعوة إلى

---

(١) كتاب محمد الرسالة والرسول ص ٤٩ .

(٢) الاسراء: ٩٠ - ٩٣ .

الهداية بأسلوب عقلي يحترم فطرته وبداهته، إن يقظة قد نبهت الناس أن الخوارق لا تنهض بذاتها دليلا على صحة الرسالة، فمنطق العقل هو تاج الحياة الإنسانية ومن حق هذه الهبة الإلهية أن تستعمل فيما خلقت له، وألا يكلف أصحابها بما لا نحتمله عقولهم من خوارق ومغيبات، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (١) .

لذلك فقد أتت دعوة محمد متمخضة لهداية العقول والضمائر، متخلصة مما غبر في الأوهام من قيام الشرائع على روعة الآيات ودهشة المعجزات، يقول محمد عزة دروزة «إن حكمة الله اقتضت ألا تكون الخوارق دعامة لنبوة محمد، وبرهانا على صحة رسالته، وصدق دعوته التي جاءت بأسلوب جديد، أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل، وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها» (٢).

هكذا تتمخض العقيدة لهداية العقل بعد أن بلغ رشده، ولاطمئنان القلب بعد أن ثبت يقينه، هكذا تنزه الدعوة من الخوارق ولو كانت مما يملك صاحبها، فكذلك يكون الإيمان عن تقبل واختيار لا عن إذعان وإجبار.. هداية البصائر والضمائر، وبقيمة العقل والقلب، لا إكراه التسليم والخوف، واستسلام الرهبة والخضوع، حض على استعمال الفكر والتبصر في الظواهر الكونية وفي حقائق الوجود، للوصول إلى معرفة الخالق العظيم والسير في طريقه القويم، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.. إيمان التثبت واليقين، لا إيمان التزعزع والالتياع. .إيمان المختار لا إيمان المكره.. برهان يملأ القلب وحجة تقنع

---

(١) سورة يونس: ٦ .

(٢) كتاب سيرة الرسول جـ ١ ص ٢٢٦ .

العقل . . لا إكراه ولا خشية، ولا إرهاب ولا تخويف.

يقول سبحانه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٥٦) .

* * *

الفصل الرابع

رسالة المسيح

بعث الله عيسى نبيا إلى بني إسرائيل، وأرسله برسالة خاصة اقتصرت عليهم وحدهم دون سائر الشعوب.

وبنو إسرائيل كما هو معروف أشد الشعوب تعصبا وعنصرية، وتصلتا وعصبية، فهم في نظر أنفسهم الشعب المقدس، وأما الباقون فرجس مدنسون «للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك فلا تقرض بربا» [١] . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران ٧٥).

وعيسى نبي اليهود، تربى بينهم وعاش في وسطهم، أحب قومه وأغدق عليهم، تروي الأناجيل أنه قبل ميلاد عيسى كثرت النبوءات التي وصفته بأنه محرر إسرائيل ومدبر شئونها وراعي شعبها، يقول الحواري متى مخاطبا بلدة لحم المدينة التي ولد فيها عيسى، والتي أنجبت من قبله أباه داود وولد فيها قبلهما يهوذا أحد أبناء يعقوب الاثنى عشر أسباط إسرائيل، يقول متى على لسان الله «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا، لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل» [٢]، وعندما بشر الملاك مريم بولادة غلامها الذكي، أعلنها بوعد الله بأن يجعله ملكا على إسرائيل وخليفة لجده

---

(١) تثنية ص ٢٣:١٩ .　　(٢) متى ص ٢:٦ .

الملك داود، يقول لوقا عنه «ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية» (١) .

ويبدأ عيسى دعوته فيعلن في صراحة ووضوح أن رسالته مقصورة على بني إسرائيل ولا تمتد إلى غيرهم، يقول عيسى «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة» (٢) . ويقول أيضاً «وقد أقامني الله نبيا على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء» (٣) .

وعيسى كان يحفظ الشريعة اليهودية ويسير على الناموس، يقول عنه الأستاذ العقاد إنه «كان يرتل المزامير، وكان يحفظ كتب أرمياء وأشعياء وحزقيال، فضلا عن الكتب الخمسة التي نسبت إلى موسى عليه السلام، وفضلا عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام» (٤) .

وكما حفظ عيسى الشريعة والناموس، أوصى أتباعه بحفظها واتباعها وتعلمها، يقول عيسى «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه» (٥).

حفظ عيسى الشريعة اليهودية التي جاء ليكملها، واحترمها وأكبرها وقدسها بحيث من الأهون عليه أن تزول السماء والأرض، وكل مخلوقات الله وموجودات الكون، ولا يزول حرف أو كلمة من الناموس الإسرائيلي، يقول عيسى «زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس»(٦).

ويحرص اليهود على الانعزال عن باقي الأمم، وعلى عدم الاختلاط بباقي الشعوب، قد يتعاملون مع الناس تعامل المصالح والمنافع، ولكنهم لا يختلطون

---

(١) لوقا ص ١ .
(٢) متى ١٥ : ٢٤ .
(٣) إنجيل برنابا ص ٥٢ : ١٣ .
(٤) كتاب عبقرية المسيح ص ١٦٦ .
(٥) إنجيل متى ص ٢٣ .
(٦) إنجيل لوقا ص ١٦ : ١٧ .

بهم ولا يمتزجون، حرصا على عدم تلوث الشعب المقدس بالشعوب الأخرى، وعلى صفاء الدماء الكهنوتية الملوكية، جاء بعض الرؤساء يوما إلى النبي عزرا يخبرونه أن نفرا من اليهود صاهروا بعض الشعوب المجاورة، وكان هذا الخبر كافيا لأن يفقد النبي صوابه ويطير عقله، يقول عزرا «ولما كملت هذه تقدم إليّ الرؤساء قائلين: لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون عن شعوب الأراضي حسب رجاستهم من الكنعانين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والأموريين لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضي، وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة أولا، فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيرا»[١].

ويؤكد الحواري بطرس هذه الدعوة العنصرية لدى اليهود، فيقول «أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه»[٢].

قد اختار عيسى اثنى عشر تلميذا ليكونوا أحباءه وأخصاءه ومساعديه في نشر دعواه، ويعد عيسى تلاميذه بأن يكونوا أعلى مقاما من أسلافهم الأسباط وأن يجلسوا قضاة يدينون الاثنى عشر سبطا، ذلك أن بطرس وأصحابه ساوموا عيسى متسائلين عما سيحصلون عليه من كسب نتيجة تركهم أعمالهم وشباكهم وسيرهم وراءه، ويجيبهم عيسى بأن مكافأته لهم على ذلك هو تعيينهم حكاما وقضاة في الملكوت يدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر، وينقل لنا الحواري متى هذه المحاورة بين عيسى وأسباطه فيقول «فأجاب بطرس حينئذ وقال له: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم

(١) عزرا ٩:١ - ٤ .

(٢) أعمال الرسل ١٠:٢٨ .

إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان (عيسى) على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر»[١].

يقول بولس إلياس في كتابه (يسوع المسيح) «إن المسيح قد اختار اثنى عشر رسولا ليعاونوه في تأسيس الكنيسة وذلك إشارة إلى أسباط إسرائيل الاثنى عشر ليكون أولئك كهؤلاء آباء روحيين لشعب الله».

ويرسل عيسى تلاميذه لينشروا دعوته بين اليهود، وليعاونوه في تبليغ رسالته فيكرر لهم الوصية بأن يقصروا الدعوة على اليهود، ويحذرهم من دخول مدن الأمم والشعوب الأخرى، ولو كانوا جيران اليهود، يقول عيسى لتلاميذه «إلى طريق أمم لا تمضوا إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة» [٢].

قصرت نصوص الأناجيل دعوة عيسى على بني إسرائيل ووقفت رسالته عند هداية الضالين منه، أما باقي الأمم والشعوب وسائر الأجناس والألوان، فلا شأن لرسالة عيسى بهم ولا علاقة بينها وبينهم، فلم تأت الرسالة إلا لأبناء إسرائيل، ولم تخاطب سواهم، لهذا فليس من حق أحد غير الإسرائيليين اعتناق الرسالة العيسوية، أو السير على نهج الشريعة اليسوعية، ومن يفعل ذلك من غير بني إسرائيل فإنما يخالف تعاليم عيسى نفسها، وتعاليم الله الذي قصر الرسالة على الإسرائيليين، ومن واجب كافة الأجناس والشعوب غير الإسرائيلية ألا يغتصبوا حقًا ليس لهم، وألا يتمسكوا برسالة أنزلت إلى غيرهم، بل حُرِّمت عليهم، وحرِّمت مصاهرتهم أو حتى الاختلاط بهم. حقيقة يعلنها عيسى لتلاميذه في صراحة «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام

---

(١) متى (١٩: ٢٧ - ٢٨).   (٢) متى (١٠: ٥ - ٦).

الخنازير» (متى ٧ : ٦). والكلاب والخنازير هم كل الشعوب الأخرى التي ليست من أبناء صهيون.

ومما يؤسف له ما تصوره بعض الأناجيل من اتسام معجزات عيسى بالعنصرية والتعصب، فهذه امرأة عربية كنعانية من نواحي صور وصيدا ترى عيسى يسير في الطريق ومعه تلاميذه فتسرع وراءه ترجوه أن يشفي ابنتها المجنونة.. ارحمني يا سيد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جدًا. ولكنه يشيح عنها بوجهه ويمضي ولا يجيبها بكلمة وتلهث المرأة وراءه ويزداد توسلها حتى يرق لها قلب التلاميذ فيطلبون من معلمهم إجابتها إلى طلبها منعًا من مضايقتهم «وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا». ولكن عيسى يذكرهم بأن رسالته وقدرته وكافة معجزاته مقصورة على الشعب المختار، وليس فيها شيء للشعوب الأخرى، ويشق رجاء المرأة المسكينة فتهرع إلى عيسى وتسجد له طالبة شفاء ابنتها ولكن عيسى ينهرها قائلاً: «ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب» والبنون هنا هم شعب إسرائيل أبناء يهوه، أما الكلاب فهم باقي الأمم والشعوب، ورغم ضيق المرأة بهذه الألفاظ الجارحة، وهذا التحقير الكريه لقومها وشعبها فإن لهفتها إلى شفاء ابنتها جعلتها تقبل هذا النعت الحقير لها ولقومها بالكلاب، فردت على عيسى ردًا كله حكم، ردًا أرضى فيه نزعة الإسرائيلي كما تصوره هذه الأناجيل، ورغبته في تسلط قومه الأرباب على سائر الشعوب الكلاب، قالت المرأة : «نعم يا سيد، والكلاب أيضًا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها» قبلت المرأة أن تكون وشعبها كلابًا لإسرائيل وأن يكون أبناء صهيون أربابًا وأسيادًا لهم، وهنا طالبت عيسى بحق الكلاب، فتات الموائد وسقط المعجزات الذي يلفظه الأسياد، خذوا الخبز وألقوا إلينا بالفتات، وكان لكلمات المرأة الحكيمة وقع السحر على عيسى وتلاميذه، لقد أرضت غرور الإسرائيليين وزهوهم وتكبرهم، فشفى

(١) انظر متى (١٥ : ٢١ - ٢٨)، مرقس (ص ٧: ٢٤ - ٣٠).

عيسى ابنة المرأة[١].

قصة تنال منا كل عجب، ولكنها إذا قورنت بما عليه أبناء يهوه من صلف وخيلاء، وما يؤمنون به من طائفية وتحيز لكانت شيئًا يسيرًا، ونحن نؤمن بأن مثل هذا التصرف لم يصدر من نبي الله عيسى عليه السلام.

ويأتي عيد الفصح[٢] أكبر أعياد اليهود، ذكرى خروجهم من مصر ونجاتهم من فرعون عندما أرسل يهوه ملاكًا أباد أبناء المصريين، فلما مر ببيوت العبرانيين ورأى على أبوابها دم الحمل الفصحى جاز منها وعبر، أما بيوت المصريين فدخل فيها وقتل أبناءهم الأبكار[٣].

ولخروج بني إسرائيل من مصر قصة، ننقلها عن مقال لنا بمجلة منبر الإسلام «استعد بنو إسرائيل لترك مصر، واتفقوا على أن يتسللوا منها في جنح الظلام، حاملين معهم ثرواتها وخيراتها وكل ما تصل إليه أيديهم وبكل وسيلة، بالسرقة والسلب، وبالخديعة والنهب، وأكثر من ذلك لقد أشركوا الله في مؤامراتهم الدنيئة، فجعلوه مدبرها وراعيها والداعي لها، لقد دس بنوا إسرائيل في توراتهم وفي كتبهم المقدسة نصوصًا مزيفة نسبوها إلى الله رب العالمين، يدعوهم فيها إلى سلب المصريين الذين أحسنوا إليهم، وإلى نهب ثرواتهم وأموالهم، تروي التوراة في الأصحاح الثالث من سفر الخروج قول الله لبني إسرائيل «فيكون حينما تمضون إنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة، وأمتعة ذهبًا وثيابًا، وتضعونها على بنيكم وبناتكم لتسلبوا المصريين».

وينفذ بنو إسرائيل وصية يهوه إله إسرائيل، فيسلبون المصريين ما أعاروه إياهم بنية حسنة من أموال وخيرات، تقول التوراة «إنهم طلبوا من المصريين

---

(١) الفصح كلمة عبرية معناها الاجتياز أو العبور.

(٢) سفر الخروج (ص ١٢ : ١٥ - ٢٧).

أمتعة فضة وأمتعة ذهبًا وثيابًا، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. . فسلبوا المصريين»[١].

هكذا تتم المؤامرة تحت رعاية الله الذي يدبر لشعبه المختار سلب شعب مصر الكريم، الذي آواهم مئات السنين، وأغدق عليهم خيرات أرضه، وأنقذهم من الهلاك والضياع، فكافأوه بسلب ثرواته ونهب أمواله[٢].

يحدثنا الأب لويس برسوم عن مراسم الاحتفال بعيد الفصح في زمن عيسى فيقول «كان عيد الفصح أكبر أعياد اليهود وسمي أيضًا بعيد الفطير، وقد تطور الاحتفال به على مر السنين، وأهم الطقوس الجديدة في العشاء الفصحي على عهد المسيح أن تدار أربعة كئوس خمر وتدار طسوت ماء لغسل الأيدي بعد الكأس الأولى تذكارًا لعبور البحر الأحمر»[٣].

وفي اليوم السابق على الفصح، يأتي عيسى إلى أورشليم عاصمة إسرائيل، ويدخل إليها راكبًا جحشًا صغيرًا فيستقبله أتباعه بسعف النخيل وأغصان الأشجار، فرحين مهللين بمخلص إسرائيل ومليكها المنتظر، ويعلو صياح الأتباع ويشتد هتافهم لعيسى وتحياتهم وبركاتهم له. . السلام لك يا ملك اليهود. . مبارك الملك الآتي باسم الرب.

وعن حديث عيسى مع المرأة السامرية عند البئر، يقول يوحنا «قال لها يسوع: أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم، لأن الخلاص من اليهود»[٤].

---

(١) خروج (ص ١٣).

(٢) انظر مقالنا (التوراة بين الزيف والحقيقة) بمجلة منبر الإسلام عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٧هـ ص ١٣٦ وبعدها.

(٣) كتاب «حياة يسوع» جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٤) إنجيل يوحنا (ص ٣ : ١٥ - ٢٢).

ورغم إنكار اليهود لعيسى وتكذيبهم إياه، يظل حتى النهاية جاعلاً إياهم خاصته وأحباءه مهما رفضوه ورذلوه، يقول عنه يوحنا «إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله»[١].

ويناجي عيسى عاصمة بلاده راجيًا أن يضم أولادها إلى صدره وأن يحنو عليهم كما تحنو الدجاجة على صغارها، يقول لأورشليم «كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها»[٢].

وبعد عيسى يأتي خليفته بطرس فيؤكد لليهود أن عيسى ما جاء إلا لخلاصهم وغفران خطاياهم يقول بطرس عن عيسى « هذا رفعه الله بيمينه رئيسًا ومخلصًا ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا»[٣]، ويستطرد بطرس قائلاً إن رسالة عيسى قد اقتصرت على أبناء إسرائيل «الكلمة التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل يبشر بالسلام يسوع المسيح»[٤].

وقد ظل التلاميذ حتى النهاية يعتقدون أن ملكوت الله يأتي بتحرير إسرائيل من قبضة الرومان وبفرض سيطرتها على دول العالم، فحين كان يحدثهم عيسى عن موعد حلول ملكوت الله سألوه قائلين: هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل (أعمال ص ١ : ٦)، ثم يأتي بولس العدو السابق والصديق اللاحق فيبتهل دوامًا لتحرير إسرائيل «أيها الأخوة مسرة قلبي وطلبتي إلى الله لأجل إسرائيل هي للخلاص» (رومية ص ١٠ : ١).

ولكي نطلع على سر العنصرية البغيضة والطائفية الكريهة التي ينادي بها الإسرائيليون، والتي أخذتها عنهم الأمم الاستعمارية، فعاملت خلق الله معاملة السوائم، نعود بأنفسنا إلى الماضي، إلى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة حيث عاشا معًا زمنًا طويلاً، وامتد بهما العمر حتى

---

(١) يوحنا (١ : ١١).
(٢) متى (٢٣ : ٣٢).
(٣) لوقا (٥ : ٣١).
(٤) أعمال (١٠ : ٣٧).

شاخا، ولم تنجب سارة لإبراهيم غلامًا، فنصحته زوجه بأن يدخل بجاريتها المصرية هاجر ليصير له نسل منها، وفعل إبراهيم كرغبة زوجه واتخذ هاجر زوجًا ثانية له أنجبت إسماعيل عليه السلام الذي من نسله جاء محمد خاتم المرسلين، وبعد أن أنجبت هاجر غلامها المبارك، دبت الغيرة في قلب الزوج الأولى سارة، ولم تطق أن ترى ضرتها وابن زوجها أمام عينيها، ورغم أن الله فتح رحمها بعد ذلك فأنجبت إسحق أخًا لإسماعيل، إلا أنها ألحت على إبراهيم أن يطرد سارة وابنها حتى لا يشارك إسماعيل أخاه إسحق الميراث، فابن الجارية لا يرث مع ابن الحرة، أخوان لأب واحد، خرجا من صلب رجل واحد، وتربيا في بيت واحد، فرقت بينهما المطامع والأهواء والأنانية وغيرة النساء، ومنذ ذلك الحين يعتقد اليهود أنهم أبناء إسحق، أبناء الحرة سارة، أما العرب فهم أبناء إسماعيل، أبناء الجارية هاجر، ومنذ ذلك حدثت التفرقة بين أبناء آدم وأبناء إبراهيم، بين كافة خلق الله، عبيد وأحرار، خدم وسادة، رغم أن الكل أبناء آدم وإبراهيم، الكل من تراب وإلى التراب يعودون.

ليس عجيبًا بعد الآن أن نسمع عن الاستعمار والامبريالية، وعن التفرقة العنصرية، وعن استعباد الشعوب واستنزاف ثرواتها، وعن معاملة الأمم العنصرية للشعوب الحرة معاملة السوائم والحشرات.

أرسل عيسى إلى بني إسرائيل، يقول تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ (الصف: ٦).

وأتى محمد إلى الناس أجمعين مبشرًا ونذيرًا لكافة الشعوب، وهاديًا لجميع الأمم ورحمة للعالمين، الأبيض والأسود، والأصفر والأحمر، والعربي والأعجمي، والرومي والفارسي.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ : ٢٨).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ومن الذي أرسل محمداً ﷺ، إنه الله «رب العالمين»، رب المشرق والمغرب ﴿أينما تولو فثم وجه الله﴾ ليس يهوه «إله إسرائيل» أو «إله يعقوب» أو إله زيد أو عمرو، بل إله الكافة وخالق الجميع.

أتى الإسلام فسوَّى بين البشر، وقاوم الطبقات وحارب التسلط، وحرر الضمير الإنساني من ربقة الطائفية ومن استعباد الاستعلاء والسيطرة، يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

جميع الناس أسرة بشرية واحدة، التفاضل بين أفرادها بالتقوى والعمل الصالح، أكرمهم عند ربهم وأقربهم إليه أتقاهم وأحسنهم عملاً، لا تكريم ولا تفاضل من أجل جنس أو لون، أو طبقة أو أمة، ولكن لكل شرف الانتساب إلى الخالق العظيم وشرف الاستعداد لبلوغ الكمال والرفعة، فكلنا عبيده وكلنا صنع يديه، لا يعوقنا جنس، ولا تمنعنا طبقة ولا يجبنا لون.

يرتفع مجلجلاً صوت الرسول الأمين في حج الوداع **«يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد»**.

صدقت يا محمد ﷺ، فكلنا أبناء آدم، وآدم من التراب، كلنا من

التراب وإليه نعود، فلماذا الاستعلاء والتعجرف؟ ولماذا الخيلاء والتنطع؟ ولماذا الزعم بالأفضلية والتميز؟ والادعاء بالمزايا والملكات؟ ألسنا جميعًا من الأرض نشأتنا وإليها عودتنا؟ خرجنا من الأرض وجبلنا من الطين وتناسلنا جميعًا من نطفة آدم وحواء، وخلقنا جميعًا إلهٌ واحد. إذن فلا تفاضل بيننا، إلا بتقوى الخالق، وبالعمل الصالح لخير الدنيا والآخرة، يقول جل وعلا: ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُو** ﴾ (الأنعام: ١٣٢).

هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعو إلى العمل النافع، ويحذر الأعراب من الاعتماد على الأصل أو المنبت، يقول عمر «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة».

التفاضل بين الناس بالإيمان والتقوى، وبالعلم والعمل، لا أحساب ولا أنساب، ولا غني ولا فقير، ولا جنسية ولا تعصب يقول سبحانه ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (الزمر: ٩).

ويقول عز من قائل ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ (المجادلة: ١١).

وكل مخلوق منح الفرصة المتكافئة ليصل إلى أقصى الدرجات، وإلى أعلى المراتب بجده واجتهاده، وبعلمه وعمله، وبإيمانه وتقواه، يقول عليه الصلاة والسلام : «**مداد العلماء يرجح دماء الشهداء**».

والقرآن حديث الرحمن لم يكتبه محمد ﷺ، ولم ينزل من أجل محمد ﷺ أو آل محمد ﷺ، وإنما نزل للناس أجمعين، وما محمد ﷺ إلا حامل الرسالة ومبلغها للناس، وليس فيها شيء، حقيقة هامة يعلنها الله لرسوله ﷺ : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.

نعم فالأمر كله لله، رب العالمين، رب العرب والعجم، والبيض والسود والحمر والصفر، وما محمد ﷺ إلا رسول ومبلغ.

لم يحاب القرآن العرب، ولم يجعلهم شعبه المختار، ولم يميزهم على سائر الشعوب ولم يعتبرهم أبناء الله وأحباءه، بل ساوى بين الجميع وأعطى كل مخلوق على حسب عمله.

ليس هذا فحسب، بل إن القرآن لم يخف ما عليه العرب من مآخذ وما عليه بعضهم من سوء الخلال، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (التوبة: ٩٧).

وينبه القرآن الرسول ﷺ والمؤمنين إلى ما عليه قومهم من نفاق وكفر ويحذرهم من الانحياز لهم أو الاطمئنان إليهم اعتمادًا على أنهم قومهم وأهلوهم، ويؤكد سبحانه أن هؤلاء المنافقين الكفار سيلقون العذاب في النار، ولن يشفع لهم جنسهم أو قرابتهم للمؤمنين، يقول سبحانه: ﴿**وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (التوبة: ٩٨).

وعندما أسلم بعض الأعراب رغبة أو رهبة، طمعًا أو خوفًا وادعوا الإيمان، لم يجاملهم القرآن بل صارحهم بأن الإيمان لما يعمر قلوبهم بعد، يقول سبحانه: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٤).

الصدق أبلج، والحق صارم، والعدل بتار، لا يعرف قومًا، ولا جنسًا ولا لونًا، حتى الأهل والأقربين والأحباب، لا تعصب ولا تحيز ولا مجاملة.

أخطأ العرب فعنفهم القرآن، وأظهر فسادهم ونفاقهم، وتوعدهم سوء العذاب لن يجاملهم من أجل محمد، فليس لمحمد من الأمر شيء، ولكن الأمر كله لله.

والأقربون والأحباب كالأبعدين والأغراب، ينالون الجزاء الوفاق خيرًا بخير،

وشرًا بشر، هذا أبو لهب الزعيم العربي القرشي يهوى في الميزان إلى حضيض ليس له قرار، وإلى نار ذات لهيب وأوار، وهو عم الرسول ﷺ، ولكنه عدو الله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ (المسد: ١ - ٥).

أما العاملون الصابرون، والعلماء المتقون، من كل جنس ولون، فيأخذون مكانهم في أعلى السلم وفي أرقى الدرجات، هذا بلال العبد الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي وغيرهم، يجلسون جنبًا إلى جنب بجوار أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب قادة العرب وأعلام قريش.

بلال هذا ولاه الرسول أميرًا على المدينة المنورة وفيها من رعيته كبار الصحابة، وباذان العبد الفارسي ولاه على اليمن، وعندما مات استخلف ابنه من بعده، وزيد بن حارثة المولى الرقيق وابنه أسامة جعله الرسول ﷺ قائدًا على جيش المسلمين وتحت إمرته كثير من الصحابة، تقول عائشة: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليها.

هؤلاء وغيرهم وصلوا إلى أعلى المراتب في الدنيا والآخرة بأعمالهم الصالحة وعلمهم النافع، لم يمنعهم الجنس أو اللون أو المنبت، بل طاولوا بأعناقهم كبار القرشيين وتساووا بالصحابة المقربين، وتميزوا على أقارب خاتم المرسلين ﷺ.

وكم أعلى الرسول ﷺ شرف الإنسان وألقى على الناس دروسًا في العزة والكرامة التي يتساوون فيها فيما بينهم كأسنان المشط.

كان أبو ذر الغفاري يحادث عبدًا في حضرة الرسول ﷺ وحميت المناقشة بينهما فاحتد أبو ذر على العبد وخاطبه قائلا: يا ابن السوداء، وهنا التفت المعلم العظيم ﷺ إلى صاحبه غاضبًا، وألقى في وجهه بتعبير غاية في الاستنكار: «**طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء**

على ابن السوداء فضل إلا **بالعمل الصالح**»، وهنا أدرك أبو ذر من هذا التأنيب اللاذع مدى الخطأ الذي ارتكبه في حق أخيه الإنسان فهوى في لحظة من استعلائه، وتذكر منشأهما ومنبتهما وقام ووضع خده على التراب، وقال للعبد: قم فطأ بقدمك على خدي.

مرت ذات يوم جنازة يهودي، فوقف لها رسول الله في خشوع، حتى إذا مرت، أقبل عليه أصحابة متساءلين: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي، فيجيبهم مستنكرًا: سبحان الله أليست نفسًا.

حدث هذا وغيره منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولكننا نرى الآن في أوروبا وأمريكا يحرمون المسيحي الملون من التعبد في كنيسة المسيحي الأبيض، لهذا انتشر الإسلام بين الأفريقيين على نطاق واسع، لأنه أشعرهم بالعزة والكرامة، ومحا الفوارق والعصبيات.

دعوة إنسانية عالمية، قضت على العنصرية والطائفية، وأزالت الأحقاد والاضطرابات، ومنعت أكبر أسباب الفتن والحروب، تلك هي نزعة الاستعلاء والتسلط التي ولدت الأثرة والأنانية وحب التزعم والسيطرة، دون مراعاة لحقوق الشعوب الأخرى أو تقدير لحرمات البلاد الأخرى، مما أذكى حروب الاستعمار والاستغلال، ثم أتى الإسلام فوضع الترياق لسم الأحقاد الدولية والمنازعات العنصرية، ودعا إلى التآلف والوحدة، وإلى التآخي والمساواة يقول سبحانه ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ ويقول رسوله الكريم ﷺ : «**ليس منا من دعا إلى عصبية**»، فلا عصبية لغير الحق، ولا ولاء لغير الله، ولكننا أخوة متحابون.. وبينما يحرم الكتاب المقدس أن يحادث اليهودي غير اليهود أو أن يختلط بهم أو يصاهرهم، أو يؤاكلهم، ويشاربهم، يبيح القرآن للمسلم أن يؤاكل غير المسلمين ويشاربهم، بل يتزوج المسلم الكتابية من جميع الأجناس ويجعل أهلها خئولة لأولاده المسلمين.

يأتي محمد ﷺ ليقيم الحد على ابنة أحد وجهاء العرب لارتكابها جريمة سرقة، فيجيء أسامة بين زيد يتشفع لها عنده، فينهر الرسول ﷺ صاحبه قائلا: «**أتشفع في حد من حدود الله، إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الفقير أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

عدل ومساواة أباح ليهودي أن يخاصم علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته، وأن يوقفه بجواره في مجلس القضاء جنبًا إلى جنب إلى أن يقضي الحق بينهما.

وعلم الأجناس ينكر بطريقة قاطعة وجود أي دليل علمي يؤيد تميز أحد الأجناس البشرية على الأخرى، بل إن الفروق البدنية بين الأجناس المختلفة لا ترجع إلا إلى البيئة والظروف والمناخ والتربية، ولا تأثير لها البتة على الصفات العقلية أو القدرات النفسية للشخص، والتاريخ يشهد أن رسالة الحضارة والمدنية لم تثبت في مكان واحد، بل تداولتها منذ القدم مختلف الشعوب والأمم والأجناس، تبعًا لحظها من العلماء والعاملين من أبنائها خلال فترة معينة من الزمن، من هذا يتضح بجلاء أن ادعاء بني إسرائيل بتميزهم عن سائر الشعوب، واختصاصهم وحدهم بهبات وملكات حرم منها غيرهم، وذلك لرغبتهم في استعباد الناس والشعوب والتسلط على الأمم، ما هي إلا دعوى زائفة كذبها الإسلام، وأثبت بهتانها العلم.

هذا هو الإسلام، شريعة العدل والمساواة، والحرية والكرامة، والتعاطف والرحمة، والتآلف والمودة، والعزة والوحدة، الناس فيها أمة واحدة، خلقهم ربهم الواحد من نفس واحدة، يقول سبحانه ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾.

صدقت يا رب العالمين، صدقت يا أرحم الراحمين، فقد خلقتنا جميعًا من

نفس واحدة لأب واحد، ومن أصل واحد، لا فضل لأحد منا على أخيه، إلا بتقواك ، وبعبادته لك، وبعمله لك، وبقربه منك، كلنا عبيدك وصنع يديك، وكلنا يوم الدينونة نلقاك، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثال ذرة شرًا يره، وما ربك بغافل عما يعملون.

* * *

الفصل الخامس

الكفارة والصلب

خلق الله آدم وحواء، ووضعهما في جنة عدن، وأحل لهما أطايبها، وما نهاهما عن شيء فيها إلا شجرة واحدة في وسط الجنة، أوصاهما ألا يقرباها.

تقول التوراة «وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت»[١].

وفي القرآن يقول سبحانه ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف : ١٩).

وجاء الشيطان يحتال على المرأة ويغويها بأن تأكل من الشجرة المحرمة، شجرة معرفة الخير والشر، حتى ضعفت المرأة للإغراء، ومدت يدها إلى ثمر الشجرة وأكلت منه وأعطت زوجها آدم فأكل معها، تقول التوراة «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل»[٢].

وفي القرآن عن غواية الشيطان لآدم وحواء ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن

(١) تك (٢ : ١٥ - ١٧).

(٢) تك (٣ : ١ - ٦).

تلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ (الأعراف: ٢٢ - ٢٣)

عصى آدم وحواء ربهما بأكلهما من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فكان لابد أن يتركا الجنة ويعودا إلى الأرض التي جبلا منها، ليختبرهما الله فيها، فلا يعود إلى الجنة إلا من حسن عمله.

يرى كتاب المسيحية أن هذه الخطيئة الأولى لم تقتصر على آدم وحواء، بل امتدت بحكم التناسل من ذات الدم الموبوء بالخطيئة إلى البشرية كلها على مر الأجيال، فجلبت الدمار على البشر أجمعين، وأن كل ما نحس به نحن البشر من شك أو نزوع إلى الفتنة وما إليها من الدس والوقيعة والرياء والخديعة، أصول الجرائم وأسسها كلها منحدرة من مصدر واحد هو الأبوان الأولان.

يقول القديس بولس «من أجل ذلك كأنما بلسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذا أخطأ الجميع»[١].

ويشرح لنا القس لبيب ميخائيل كيفية ذلك فيقول «لقد كان آدم نائبًا وممثلاً لجميع الجنس البشري الذي كان في صلبه يوم تعدى وصية الله.. فبعد طرده من الجنة ولد نسلاً ساقطًا نظيره، في حالة الفساد الروحي والأدبي، وتحت حكم الموت والدينونة التي استحقها بعصيانه وتمرده على الله، وقد ورث هذا النسل عن أبويه الأولين حياة العداوة لله، والتمرد على شرائعه ووصاياه»[٢].

أخطأ آدم وحواء، وأكلا من شجرة نهاهما الله عنها، فترتب على فعلتهما

(١) روحية (ص ٥ : ١٢).
(٢) لبيب ميخائيل: قضية الصليب ص ٨١ .

ليس سقوطهما فقط، بل سقوط كافة الجنس البشري في الإثم والدنس ولكن هل أصر آدم وحواء على فعلتهما، ألم يندما عليها ويستغفرا ربهما؟ وهل تاب الله عليهما، فجنبهما وأبناءهما مغبة الانحدار في مهاوي الضلالة؟

ينفي كتاب المسيحية ذلك نفيًا قاطعًا، ويرون أن الله لم يغفر لآدم وحواء خطيئتهما، بل تركهما وأبناءهما من بعدهما تحت حكم الدينونة.

ولكن إلى متى يظل آدم وأبناؤه مدنسين بهذه الخطيئة؟

• العدل والرحمة:

يقول كتاب المسيحية إن الله عادل ورحيم، فبمقتضى عدله كان لابد أن ينفذ حكم الموت على آدم وحواء «لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت»، ولكن بمقتضى رحمته كان يجب أن يعفو عنهما بلا قيد ولا شرط، صفتان في الله ، وقانونان له يرتبط بهما سبحانه ارتباطًا حتميًا لا يستطع منه الفكاك، يقول الايغومانس إبراهيم لوقا «إن الله وإن كان غير خاضع لناموس خارج عنه إلا أنه مرتبط بناموس كماله الأدبي، فهو إن كان على كل شيء قدير إلا أن كماله الأدبي لا يسمح له بأن يأتي ما يناقض طبيعته الخيرة والمقدسة، فهو تعالى وإن لم يكن مرتبطًا بقانون خارجي فإنه مرتبط بقانون طبيعته الأدبية الكاملة، وهذا يجعله لا يأتي ما يخل بأية صفة من صفاته أو ما يمسها»[١].

ولكن هذان القانونان في الله ، وهاتان الصفتان فيه متعارضتان ومتغيرتان، بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، العدل يطالب بالموت جزاء العصيان، والرحمة تطلب العفو والمغفرة، و الله حائر بين صفتيه المتعارضتين، لا يعرف كيف يوفق بينهما، أو كيف يغلب إحدى الصفتين على الأخرى، إذا أراد أن يميت بالعدل منعته الرحمة، وإذا رغب أن يعفو بالرحمة عاقه العدل . . !

---

(١) إبراهيم لوقا : المسيحية في الإسلام ص ١٦٠ .

• الكفارة:

يقول القديس بولس «لا توجد مغفرة بدون سفك دم».

ولكن من هو الشخص الذي يستحق أن ينوب عن آدم؟ وما هي الدماء التي يكفي سفكها لتخليص آدم وزوجه وأبنائهما من الخطيئة؟.

يقول الكتاب إن خطيئة آدم لا تشترى إلا بدم زكي نفيس، وهذا الدم لا يكون دم إنسان من البشر، ذلك أن البشر ملوثون ودماءهم نجسة، كذلك ليس دم حيوان من الحيوانات التي تعود الوثنيون واليهود ذبحها كفارة عن ذنوبهم. ذلك أن الحيوان لم يشترك في خطيئة آدم [1]، كذلك ليس دم ملاك لأن الملائكة ليس لهم دم وبالتالي لا يصلحون للفداء، وإذن فلا بد أن يكون الدم دمًا إلهيًا طاهرًا، ولكن في الوقت نفسه يمثل البشرية فهو دم طاهر - ولا طاهر إلا الله - ويمثل الإنسان.

ولكن هل للإله دم؟ وكيف يكون الدم إلهيًا ويمثل البشرية في نفس الوقت؟ المشكلة تحل بنظرية التجسيد، يرسل الله ابنه الوحيد ليحل في جسد العذراء مريم، ويظل في بطنها فأحشائها تسعة أشهر، ثم يولد بالجسد إنسانًا ذا لحم ودم ولكنه الله نفسه..!

يقول بولس «لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة، ومولودًا تحت الناموس ليفتدي الذين هم تحت الناموس لننال التبني» (غلاطية ٤ : ٤).

هذه النظرية يقوم عليها الدين المسيحي كله، يقول القس بولس إلياس «إن موت المسيح وبالتالي سر الفداء يمثل نقطة الدائرة من الدين المسيحي، لقد تم مفعول الوساطة بموت المسيح وسفكه دمه، الذي به كفر عن خطايانا وأرضى الله أباه»[2].

---

(١) تذكر التوراة أن الحية (وهي حيوان) هي التي حرضت حواء على الأكل من الشجرة المحرمة.

(٢) بولس إلياس: يسوع المسيح ص ٩٤ .

• الصلب:

أسهب كتاب المسيحية في سرد نظرية الصلب، صلب عيسى وسفك دمه، من أجل تخليص البشر من خطيئة آدم، ونوالهم رضوان الله ، النظرية التي يقوم عليها الدين المسيحي كله، والتي من أجلها تجسد ابن الله وأتى إلى الأرض.

يحدثنا الحواري مرقس عن كيفية القبض على عيسى تمهيدًا لصلبه «وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين، وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يمسكونه بمكر ويقتلونه، ولكنهم قالو ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب، وجاءوا (عيسى والتلاميذ) إلى ضيعة اسمها جثيماني فقال لتلاميذه: اجلسوا هنا حتى أصلي، ثم أخذ بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب فقال لهم نفسي حزينة جدًا حتى الموت، امكثوا هنا واسهروا، ثم تقدم قليلاً وخر على الأرض وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن، وقال يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك فأجز عني هذه الكأس»[١].

وقبل أن نستطرد في ذكر تفاصيل الصلب كما روتها الأناجيل، نقف قليلاً عند بعض الألفاظ والعبارات التي وردت لنتبين مدى تلاؤمها مع نظرية الكفارة والصلب، إن كتاب المسيحية يقررون أن أول شروط الفادي أنه جاء بنفسه وإرادته إلى العالم ونزل من عليائه وتجسد ليصلب، لم يأت إلى العالم ولم يتجسد إلا ليصلب ويكفر بنفسه ودمه خطيئة آدم. وإذا كان هذا صحيحًا وكان عيسى قد أتى بإرادته ليصلب، فما الذي يدعوه هنا إلى الحزن والاكتئاب؟ وما الذي يدعوه إلى تغيير رأيه وطلب العدول عن صلبه؟ بل ما الذي جعله يصلي لله ويتوسل إليه أن يجيز عنه هذه الكأس، وأن يخلصه من الصلب؟ وأية صلاة

---

(١) إنجيل مرقس ص ٤ .

تلك التي كان يصليها عيسى لله؟ إنها صلاة الخضوع والخشوع والبكاء، صلاة الخوف والخشية والحزن.

هنا نرى عيسي يعيد الصلاة والتضرع لله أن يجيز عنه الكأس التي ما أتى إلى العالم إلا ليشربها، ويرجو تلاميذه أن يصلوا معه يتوسلوا لله ليبعد عنه كأس الموت، ويتكرر المشهد والصلاة والتضرع ثلاث مرات، وتصور الأناجيل أن الله لم يستجب لتوسلات عيسى وصلاته، فيئس عيسى وكف عن الصلاة، وسمح لتلاميذه بالراحة والنوم.

ويمضي مرقس في روايته فيقول «وللوقت فيما هو يتكلم (عيسى) أقبل يهوذا واحد من الاثنى عشر ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ وكان مسلمه الخائن يهوذا قد أعطاهم علامة قائلاً: الذي أقبله هو هو، أمسكوه وامضوا به بحرص، فجاء الوقت وتقدم إليه قائلاً: يا سيدي وقبله، فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه».

ويوضح لنا الحواري لوقا مدى الكراهية التي أصبح اليهود يكنونها لعيسى، إلى درجة أن الوالي بيلاطس عندما خيَّرهم بين العفو عن عيسى بمناسبة عيد الفصح أو العفو عن بارابلس القاتل، صرخ الجموع في الوالي «خذ هذا وأطلق لنا باراباس، وذاك قد طرح في السجن لأجل فتنة حدثت في المدينة وقتل، فناداهم أيضًا بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع، فصرخوا قائلين: اصلبه. فقال لهم ثالثة: فأي شيء عمل هذا، إني لم أجد فيه علة للموت، فأنا أؤدبه وأطلقه، فكانوا يلجون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب، فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة، فحكم بيلاطس أن-تكون طلبتهم، فأطلق لهم اذي طرح في السجن لأجل فتنة وقتل الذي طلبوه ، وأسلم يسوع لمشيئتهم»[1].

(١) إنجيل لوقا (٢٣ : ١٨ - ٢٥).

وهنا تأخذنا الدهشة، إن جموع الشعب تصرخ طالبة الموت لعيسى،، وإطلاق سراح مجرم قاتل، فما الذي حدا بالجموع إلى هذا الحقد الشديد على عيسى، والمطالبة بقتله وسفك دمه، وأين الآلاف الذين شفاهم وصنع بينهم المعجزات؟ وأين الآلاف الذين استقبلوا عيسى عند دخوله أورشليم؟ استقبلوه بالأغصان والرياحين، وخلعوا ثيابهم عن أجسادهم وفروشهم في طريقه لتطأها أقدام حماره، وهتفوا له ملكًا عليهم ومحررًا لإسرائيل، أين هؤلاء جميعًا؟ وكيف انقلب هذا الحب الجارف إلى مقت شديد، ورغبة عارمة في الانتقام والتنكيل والتعذيب؟ هل هي صدمة اليهود في عيسى الملك المخلص؟ الذي لم يستطع تحرير إسرائيل أو الجلوس على عرش داود، أم ما هي الحقيقة؟

ويستطرد الحواري متى في شرح عقيدة الصلب فيقول: «فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة، فعرّوه وألبسوه رداء قرمزيًا، وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه، وكانوا يجيئون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام لك يا ملك اليهود، وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه وبعد أن استهزئوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب»[١].

وهنا يثور التساؤل. هل كان من اللازم أن يموت عيسى بهذه الطريقة؟. شيء عادي أن يموت الإنسان شهيدًا، وشيء طبيعي أن يضحي الإنسان بنفسه من أجل هدف أو غاية، وهؤلاء وهؤلاء يموتون دائمًا ميتة كريمة، بل حتى المذنبين فإن طريقة إعدامهم تختلف تبعًا لقدر كل منهم وقيمته في المجتمع، وتبعًا للجرم الذي أتاه وما إذا كان هذا الجرم مخلاً بالشرف والكرامة أم لا، فالمجرم الأثيم قد يعدم شنقًا بحبل أو صلبًا على خشبة أو قد يلقى به طعامًا للوحوش،

(١) إنجيل متى (٢٧ : ٢٧ - ٣١).

أما المذنب الشريف فيعدم رميًا بالرصاص أو القتل في مبارزة وهكذا.. نعم هذه ميتة وتلك ميتة، ولكن شتان بين الميتتين.

قد يكون السبب ما نراه من تصويرهم عيسى كملك كاذب مزيف يضعون على رأسه إكليل الشوك بدلاً من إكليل الذهب المرصع بالماس، ويجعلون في يده قصبة من العشب الجاف بدلاً من قصبة الملك، فقد ادعى أنه المسيح المخلص ملك اليهود ومحررهم وكذب ادعاؤه وافتضح زيفه.

ويمضي الحواري متى في ذكر رواية الصلب فيقول «وفيما هم خارجون وجدوا إنسانًا قيروانيًا اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه، ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة، أعطوه خلاً ممزوجًا بمرارة ليشرب، ولما ذاق لم يرد أن يشرب، ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هكذا: هذا يسوع ملك اليهود، حينئذ صلب معه لصان واحد عن اليمين وواحد عن اليسار وكان المجتازون يجدفون عليه، وكذلك رؤساء الكهنة أيضًا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قائلين: خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها، إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به، وبذلك أيضًا كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه.. ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني؟ فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا: إنه ينادي إيليا، وللوقت ركض واحد منهم وأخذ إسفنجة وملأها خلاً وجعله على قصبة وسقاه، وأما الباقون فقالوا: اتركه لنرى هل يأتي إيليا ليخلصه فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح»[1].

---

(١) متى (٢٧ : ٣٣ - ٥٠).

ما الذي جعله يصرخ هذه الصرخات اليائسة على الصليب؟ كيف يكون هذا وما أتى إلى العالم إلا من أجل هذه اللحظة؟ لحظة الصلب والموت من أجل الآخرين، وهي لحظة كانت جديرة بأن تجعله يفرح لا يحزن.

• تناقض الرواة:

فرض جدلي نسلم فيه بصحة الصلب، ومع ذلك فإننا نلاحظ بين بعض الأناجيل تناقضًا كبيرًا في سرد أحداث الرواية وذكر الحوادث بعضهم يقتصد والبعض يبالغ، بعضهم يأتي بحدث أو حديث لا يذكره غيره أو يذكره على نحو مغير، حتى عذاب عيسى اختلفوا فيه، بعضهم تمادي في ذكر آلامه وأحزانه، وبعضهم اقتصد في التعذيب وقتر في التأنيب.

والتناقضات كثيرة، ولكننا هنا نقتصر على إيراد بعض أوجهها تاركين التفاصيل لمن يرغب في مطالعة الأناجيل.

في محاكمة المصلوب الذي يدعون أنه عيسى نرى متى يتحدث في إنجيله عن كيفية مثول عيسى أمام الوالي بيلاطس فيقول «فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلاً: أأنت ملك اليهود؟ فقال يسوع: أنت تقول. وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء فقال له بيلاطس: أما تسمع كم يشهدون عليك، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدًا»[1].

ويعيد ذكر هذا الموقف الحواري مرقس في الأصحاح الخامس عشر من إنجيله بكلمات مشابهة أيضًا.

أما الحواري يوحنا فيذكر هذه الواقعة بطريقة مخالفة تمامًا للإنجيلين السابقين وبحديث مغاير تمامًا لما ورد فيهما، يقول يوحنا «ثم دخل

---

(١) إنجيل متى (ص ٢٧ : ١١ - ١٤).

بيلاطس أيضًا إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له: أنت ملك اليهود؟ أجابه يسوع: أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني : أجابه بيلاطس العلي أنا يهودي، أمتك ورؤساء الكنيسة أسلموك إلي، ماذا فعلت؟ أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم، لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكيلا أسلم إلى اليهود، ولكن الآن مملكتي ليست من هنا، فقال له بيلاطس، أفأنت إذن ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول أني ملك، لهذا قد ولدت: ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق كل من هو الحق يسمع صوتي، قال له بيلاطس: ما هو الحق»[1].

في هذه الواقعة، واقعة محاكمة عيسى، نجد إنجيل متى ومرقس يؤكدان أن كل ما قاله عيسى لبيلاطس «أنت تقول» ويجزمان بأن بيلاطس حاول بعد ذلك أن يتحدث مع عيسى أو يناقش معه أو يجعله يدافع عن نفسه فلم يجبه عيسى ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدًا. هذا ما يقوله متى ومرقس، أما يوحنا التلميذ الحبيب لعيسى فقد أورد حديثًا طويلاً يرد به عيسى على الوالي ويناقشه، ويتحدث فيه عن مملكته السماوية، وعن الحق الذي أتى ليشهد له.

وواقعة أخرى هي شخصية حامل الصليب الذي علق عليه عيسى كما يقررون، يقرر الحواريان متى ولوقا أن عيسى لم يحمل الصليب بنفسه بل حمله عنه فلاح يدعى سمعان أحضره الجنود الذين كانوا يحرسون عيسى، يقول الحواريان إن الجنود «أمسكوا سمعان رجلاً قيروانيًا كان آتيًا من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله»[2] . أما يوحنا فيقرر أن عيسى هو الذي حمل صليبه بنفسه حتى موضع الصلب، يقول يوحنا «فأخذوا يسوع

---

(١) إنجيل يوحنا (ص ١٨ : ٣٣ - ٣٨). (٢) متى ٢٧ ، لوقا ٢٣ .

ومضوا به فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له الجمجمة حيث صلبوه»[١].

الرواية الأولى (متى ولوقا) رغب صاحباها في توقير عيسى وإكرامه فجعلا جنود الرومان يسخرون فلاحًا يحمل عن عيسى صليبه ويسير خلفه. أما الرواية الثانية (يوحنا) فيبدو أن صاحبها قد أراد المبالغة في إظهار عذاب عيسى فحمله صليبه إلى موضع صلبه.

وفي تصوير موقف عيسى على الصليب، بينما نرى متى ومرقس يصورانه فزعًا هلعًا خائفًا مذعورًا، يصرخ إلى الله في يأس وضجر، «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» ثم يصرخ بصوت عظيم ويسلم الروح، نرى لوقا يصوره راضيًا قانعًا، سمحًا مسالمًا لا يصرخ ولا يفزع .. ولا يتأوه ولا يتألم، بل ينظر للأمر كله لحكمة وتعقل، وبطيب خاطر وبساطة سريرة، يطلب من الله أن يغفر لجلاديه وأن يرحمهم «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» أما يوحنا فلا يذكر شيئًا عن هذا أو ذاك، لا صراخ ولا رضى، وإنما يصور عيسى بكامل الاتزان وجمود القلب، لا تتحرك منه خلجة ولا تهتز له جارحة، بل يترقب كل خطوة من خطواته نحو الموت، وكل مرحلة من مراحل تعذيبه كأنها قدر مكتوب ووعد محسوب، وكأن على صالبيه إتمام هذا الوعد وتحقيقه بنفس الدقة والترتيب الذي قدر به وحسب، بحيث إنه عندما انتهت كافة الخطوات والمراحل، وبدأ عيسى يجود بأنفاسه ويسلم روحه لبارئه لم ينطق سوى كلمة واحدة «قد أكمل» وكأنها شهادة لجلاديه بأنهم أتموا تحقيق المهمة الإلهية التي وكلوا بتنفيذها وأدوها على خير وجه ليس هذا فحسب بل إن يوحنا يذكر في إنجيله أن عيسى عندما أخبر تلاميذه بموته طلب منهم أن يفرحوا لهذا الخبر ولا يحزنوا «لا تضطرب قلوبكم، سمعتم أني قلت لكم أنا أذهب ثم

---

(١) يوحنا ١٩ .

آتي إليكم، لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون».

وواقعة خامسة يذكرها متى وحده، يقول متى إنه بعد أن أسلم عيسى الروح «وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزت، والصخور تشققت، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة (أورشليم)، وظهروا لكثيرين»[1].

هذه الحادثة التي ابتدعها خيال متى لم يذكرها أحد من المؤرخين ولم يسمع بها أحد، ولو صحت هذه الحادثة العظيمة فعلاً لما أنكر أحد بعد ذلك، ولآمن كل الشعب اليهودي بعيسى ومنهم جلادوه وصالبوه.

• أضواء على الفكرة:

إذا صرفنا النظر مؤقتًا عما شاب رواية أحداث الصلب من تناقضات، وعن مدى نصيب هذه الأحداث في جملتها وتفصيلاتها من الصحة، وعدنا إلى فكرة الكفارة نفسها، ونظرية افتداء عيسى بدمه خطيئة آدم التي علق وزرها بالناس حتى مجيئه، فإن لنا على النظرية ذاتها بعض الملاحظات.

• أنبياء آثمون:

مقتضى فكرة الكفارة والإثم الذي ظل عالقًا بالبشر منذ هبوط آدم وحتى مجيء عيسى أن الله سبحانه ظل يضمر الغضب والسوء للجنس البشري آلاف السنين حتى جاء عيسى ليمحو بدمه الإثم.

ولكن من المعروف أن الله قد اختار بعض هؤلاء البشر الآثمين قبل مجيء عيسى، اختارهم رسلاً لهم وأنبياء، اختارهم واصطفاهم ليبلغوا رسالاته للناس ولهداية البشرية، اختارهم وأيدهم بمعجزاته وآياته وكتبه ورسالاته، اختارهم

(١) متى (٢٧ : ٥١ - ٥٣).

لبرهم وصلاحهم، ووعدهم جنات الفردوس والنعيم.

اختار نوحًا رسولاً بارًا، واختار إبراهيم له خليلاً، واختار لوطًا نبيًا، واختار موسى كليمًا، واختار إسماعيل وإسحق ويعقوب الملقب بإسرائيل، واختار داود المبارك جد عيسى الذي طالما تفاخر عيسى بأنه من سلالته، واختار ابنه سليمان، واختار غيرهم كثيرين ما كل هؤلاء اختارهم سبحانه رسلاً مكرمين وأنبياء مطهرين قبل مجيء عيسى وتطهير البشر بدمه، فهل هؤلاء أيضًا منجسون بالدم الفاسد وبالخطيئة والإثم التي ورثوها عن أبيهم الأول آدم؟.

• ثمرك عملك:

هذا الذي يقوله كتَّاب المسيحية يناقض كل حق وصدق، وكل عقل ومنطق، بل يناقض ما ورد في كتابهم المقدس وفي كافة الكتب السماوية والقوانين الوضعية من مسؤولية كل إنسان عن فعله، وأن كل فرد يحاسب عما أتت يداه، وأنه لا يؤخذ الولد بخطيئة الوالد، ولا يعاقب أحد على ذنب ارتكبه آخر، يقول الكتاب المقدس «لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل»[١].

وتؤكد التوراة أن الابن لا يحمل شيئًا من إثم أبيه، بل يجني كل ثمار عمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، تقول التوراة «النفس التي تخطئ هي تموت، والابن لايحمل من إثم الأب، والأب لا يمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون»[٢].

كأن التوراة في هذه العبارة ترد على أصحاب عقيدة الكفار، الذين يرون أن حكم الله على آدم بالموت قد تحمَّله عيسى نيابة عنه، هذه العبارات تدحض دعواهم مؤكدة أن الموت جزاء المخطئ، فالنفس التي تخطئ هي التي تستحق

(١) سفر التثنية (ص ٣٤ : ١٦). (٢) حزقيال (ص ١٨ : ٢٠).

الموت والعقاب، ولا عقاب على نفس أخرى مهما كان قربها من النفس المخطئة، ومهما كانت الصلة بينهما.

والقرآن حديث الرحمن يزيد هذه الحقيقة وضوحًا ويجليها بيانًا، يقول عز وجل ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ (الإسراء: ١٣ - ١٤).

نعم فكل إنسان مسؤول وحده عن عمله، وعما جنت يداه، وله عند الله سجل وكتاب تسطر فيه حركاته وسكناته وحسناته وسيئاته، ويوم القيامة يخرج الكتاب ليشهد لصاحبه أو عليه بكل ما قدمت يداه، يقول تبارك وتعالى:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (النجم: ٣٦ - ٤٠).

ويوم القيامة يثاب المحسن ويعاقب المسيء ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (فصلت: ٤٦)، هناك الجنة والنار والتفرقة بين الشرير والبار، ويوم الحساب ﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ (لقمان ٣٣)، ففي هذا اليوم الرهيب لا يثاب أحد بخير أحد، ولا يعاقب إنسان عن ذنب آخر، ولو كان أقرب الأقربين ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (عبس: ٣٤ - ٣٧).

• وراثة الإثم:

يرى أصحاب الكفارة أن الإنسان يرث آثام والديه، وأن الطفل يولد من بطن أمه ملوثًا بدنس الخطيئة الأولى «بالخطيئة حبلت بنا أمهاتنا».

ولكن الإسلام يقرر أن الطبيعة الإنسانية كاملة نقية، وأن فطرة الإنسان طاهرة

مبرأة من السوء والشر، وأن الخطيئة كسب لا وهب، وعرض حادث لا إرث وارث، فكم من أبوين صالحين أنجبا أولادًا فجرة، وكم من بيوت منحلة أنبتت علماء وقديسين، فالعابد قد ينجب الفاسد، ومن الفاسد يخرج العابد، وكما أن النار تولد النار، فهي أيضًا تخلف الرماد،وكثيرًا ما شاهدنا أخوين شقيقين تربيا في نفس البيئة ولكنهما اختلفا في الطباع والأخلاق، قد يكونان ولدين أحدهما عالم والآخر عربيد، وقد تكونان بنتين إحداهما عابدة والأخرى عاهرة. هذا إبراهيم الخليل عليه السلام والده كافر شرير، وهذا نوح البار ولده في الدرك الأسفل من النار.

نعم يولد الإنسان من غير أن تكون الخطيئة مركوزة في فطرته، وهو قابل للترقي بالإحسان، وقابل للتدلي بالإساءة، يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين، كما يستطيع أن يهوي إلى أسفل سافلين، كل حسب إيمانه وعمله، يقول جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (التين: ٤ -٦).

يقول الدكتور نظمي لوقا «لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة التي تطبع بصفة الخجل والتأثم كل أفعال المرء فيمضي في حياته مضي المريب المتردد. ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث»[١].

• الصلب والوساطة:

ترتب على رواية الصلب والفداء أن أصبح عيسى هو الوسيط الذي افتدانا بدمه وصالحنا مع الله .

يقول القديس بولس «يوجد وسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع

---

(١) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول ص ٨٤ .

المسيح»، والحقيقة أن الكهنة والأحبار قد استغلوا هذه النظرية فقد ادعوا أن عيسى قد أورثهم هذه السلطة، سلطة الشفاعة بين الله والناس وجعل بيديهم مفاتيح السموات والجنات وجعل في سلطتهم التحليل والتحريم، والمنح والمنع فكل ما يفعله الإنسان خاضع لتقدير الكهنة خلفاء عيسى، يحرمونه ويحللونه حسب هواهم وتبعًا لمشيئتهم، يدخلون في رحمة الله من يشاءون، ويطردون من رضوانه من يكرهون، يقول عيسى لخليفته بطرس «وأنا أقول لك أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماء وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماء»[1].

ويورد الحواري يوحنا قول عيسى للتلاميذ «من غفرتم للناس خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت».

وقد ورث الكهنة هذه السلطة الضخمة، بل هذه القدرة الإلهية، قدرة التحليل والتحريم، والمنح والمنع، والثواب والعقاب والقصاص والغفران.

أما الإسلام فليس فيه خطيئة موروثة تحتاج إلى إله أو نبي يقوم بتكفيرها، فكل نفس بما كسبت رهينة، وليس في الإسلام وسيط بين الله والناس، فليس أحد أحق بالوساطة من أحد، بل كل الناس سواسية، وكلهم عبيد الرحمن أقربهم إليه أتقاهم، والحرم الإلهي مفتوح لكل تقي صالح راغب في الرحمة والرضوان، والله أقرب إلى عباده من حبل الوريد، ليس بينه وبينهم حجاب، وبابه مفتوح لكل طارق، ليس عليه سدنة ولا كهان، يقول سبحانه لرسوله الكريم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وهو تبارك وتعالى «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار

---

(١) إنجيل متى (١٦ : ١٩).

ليتوب مسيء الليل».

جاء الإسلام فحرم الإيمان بالوساطة أو الشفاعة، وقضى على المدعين والمضللين، يقول سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥). حتى رسول الإسلام ليس وسيطًا بين الله والناس، وإنما عبدًا لله ورسوله وهو مذكر وليس مسيطرًا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١ - ٢٢)، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (الشورى: ٤٨).

وإذا كفر الناس بربهم وتمادوا في غيهم وشرورهم، فلن تنفعهم شفاعة ولن تجديهم وساطة ولو كانت من الرسول نفسه، يقول الله لرسوله ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٨٠). نعم، فغفران الذنوب وقبول التوبة بيد الله وحده، لا يشاركه فيه أحد ولا يتوسط عنده فيه فرد، يقول سبحانه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ (الزمر: ٥٢ - ٥٣).

• انهيار الأساس:

إن أساس فكرة الخطيئة قد انهار الآن، ووضحت الحقيقة كالنور للعيان. نعم لقد أخطأ آدم ولكن الله سبحانه عفا عنه، عصى آدم ربه وأكل من الشجرة المحرمة، ثم استيقظ ضميرهما وشعرا بمدى الخطأ الذي ارتكباه فندما على فعلهما، واستغفرا الله وأنابا إليه فغفر لهما الغفور الرحيم، ورضي عنهما واجتباهما.

يقول القرآن الكريم ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه: ١٢١ - ١٢٢)، عفا الله عن آدم وحواء بمجرد توبتهما إليه واستغفارهما له،

ومن دلائل عفوه سبحانه أنه لم ينفذ فيهما حكم الموت الذي ورد على لسان الله في التوراة عند قوله لآدم «إنك يوم تأكل من هذه الشجرة موتًا تموت». فلولا عفو الله عنهما، لكان الجزاء الواجب توقيعه عليهما في الحال هو الموت، ولكن الله قابل التوب، وغافر الذنب، قبل توبتهما وعفا عنهما.

يقول القمص باسليوس إسحق إن الله «لم ينفذ في آدم وحواء حكم الموت كما تقضي العدالة لأن الله رحوم، وإن كان في نفس الوقت عادل، ولهذا دبر ذبيحة الكفارة من دم الحيوان فافتداهما بكبشين ذبحهما الله فدية عنهما، فالذبيحة الأولى للكفارة عقب السقوط مباشرة كانت من الكباش، يؤيد هذا قول التوراة في سفر التكوين ص ٣ «وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما» فهذه الأقمصة كانت من جلود الكباش التي قدمت تكفيرًا عنهما حتى لا ينفذ فيهما حكم الموت»[(١)].

لقد عفا الله عن آدم وحواء، ولو أنه عفو بقربان وذبيحة من الكباش إلا أنه عفو على أي حال، وغفران وصفح، عفا الله عن آدم وزوجه، وجعلهما وأبناءهما خلفاءه سبحانه في الأرض، وكرمهم ورفعهم مكانًا عليًا. استخلف الله آدم وأبناءه في الأرض، وجعل لهم الأرض ذلولاً يأكلون من خيراتها، وخلافة الأرض مرتبة عليا وتشريف عظيم استشرفت إليه الملائكة يقول سبحانه: **﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾** (البقرة: ٣٠). لا فخلفاء الله ليسوا آثمين وليسوا مفسدين، بل عباد مكرمون وبشر صالحون، مفضلون عن كثير من المخلوقات، منعمون في الأرزاق والطيبات، يقول جل وعلا **﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾** (الإسراء: ٧٠).

---

(١) باسيليوس إسحق : الحق ص ١٤٣ .

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ (الأعراف: ١١) استرد الإنسان كرامته، وعادت له حريته، وبريء آدم مما ألصق به من تهم، ومما حاق بأبنائه من عيوب، وعفا الله عنه، واستخلفه في الأرض وكرمه وأبناءه وفضلهم على أعظم مخلوقاته.

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن وضع آدم وحواء في الجنة لم يكن إلا وضعًا مؤقتًا، ذلك أن الجنة ثواب كبير ومكافأة عظيمة، ولكن الثواب والمكافأة لا تعطيان إلا لمن يعمل صالحًا، وبقاء آدم وحواء في الجنة دون اختبار هو حصول على الثواب دون عمل، لذلك فلم يكن وضع آدم في الجنة إلا ليذوق حلاوتها ويستمتع بنعمها فترة حتى يعرف هو وأبناؤه ما ينتظرهم لو حسنت أعمالهم خلال فترة الاختبار التي سيقضونها على الأرض، وحادث الأكل من الشجرة المحرمة لم يكن سببًا لنزول آدم وحواء إلى الأرض بل هو تقدير قدره الحكيم العليم بعلمه المطلق ليحق عليهما تقديره تعالى بجعلهما خلفاء له في الأرض، فنزول آدم وحواء إلى الأرض كان تقديرًا سماويًا معلومًا حتى لا يعطى الثواب والرضوان إلا لمن يستحقه بإيمانه وعمله فيعود إلى الجنة تفتح أبوابها لكل من كان جديرًا بها، مستحقًا لسكناها. أحداث عملية كثيرة تثبت عفو الله عن آدم وتؤكد بهتان فكرة توارث الإثم، وتؤيد مسؤولية كل إنسان عن عمله. نذكر بعضها كأمثلة.

الحادث الأول هو التفرقة في المعاملة بين ولدي آدم هابيل وقابيل، ورضا الله عن الأول لصلاحه، وسخطه على الثاني لضلاله، رضي الله عن هابيل وتقبل منه ذبيحته وسخط على قبيل ورفض قربانه، وأعلن لهما أن الجزاء على قدر العمل، وأن صلاح هابيل سيدخله الجنة، وإثم قابيل سيدخله النار، وكان هذا الإعلان من الله مثار حقد الثاني على الأول، ومبعث ضيق الشرير من الخير، فحقد قابيل على هابيل وقتله، فكان جزاؤه الجحيم ثمرة جرمه.

يحدثنا سفر التكوين عن هذه الحادثة فيقول «وكان هابيل راعيًا للغنم وكان قابيل عاملاً في الأرض، وحدث بعد أيام أن قابيل قدم من أثمار الأرض قربانًا للرب، وقدم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قابيل وقربانه لم ينظر، فاغتاظ قابيل جدًا وسقط وجهه فقال الرب لقابيل: لماذا اغتظت، ولماذا سقط وجهك، إن أحسنت فلا رفع، وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها»(١).

وفي القرآن الكريم: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ (المائدة: ٢٧ - ٣١).

فرق الله في المعاملة وفي الجزاء بين ولدي آدم، في الدنيا والآخرة كل حسب عمله، ولو كان الله لم يعف عن آدم كما يقولون، أو كانت الخطيئة تتوارث كما يدعون، لكان جزاء ولدي آدم وحواء واحدًا، ولما كان هناك مبرر للرضى عن هذا وللسخط عن ذاك، ولإدخال هذا الجنة وحشر ذاك في السعير، وإنما هي العدالة الإلهية لا تأخذ البريء بجريرة الآثم، وإنما تعطي لكل ذي حق حقه.

حادث آخر هو إغراق الكافرين في عهد نوح وإبقاء الأتقياء الصالحين، كثر

---

(١) تك (ص ٤ : ٢ - ٧).

الظلم على الأرض وفسد معظم الناس، فغضب الله وبعث بطوفان منالماء غطى وجه الأرض، وأغرق كل سكانها، إلا الأبرار الصالحين، نوحًا والذين آمنوا معه.

تحدثنا التورا عن ذلك فتقول «ورأى الله الأرض فإذا هي فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض، فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي، لأن الأرض امتلأت ظلمًا منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فلكًا من خشب جفنير تجعل الفلك مساكن.. فها أنا آت بطوفان من الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من السماء، كل ما في الأرض يموت، ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك.. فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان أربعين يومًا على الأرض وتكاثرت المياه ورفعت الفلك، فارتفع عن الأرض وتعاظمت المياه، وتكاثرت جدًا على الأرض. فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض.. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط»[1].

محا الله كل الخطاة ولم يبق إلا البررة، كل الأشرار والفجار قضى عليهم ولم يترك سوى الأتقياء، يقول الرحمن لنوح: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾ (هود: ٣٧).

فرض جدلي، إذا كانت خطيئة آدم ما زالت موجودة إلى عهد نوح، فقد

---

(١) سفر التكوين الأصحاحين ٦، ٧.

قضى الله على كل أشرار الأرض، ولم يبق إلا الأبرار الصالحون المؤمنون بالله، نوح وأتباعه عمر بهم الأرض، وجعلهم خلفاءه فيها، تقول التوراة عن نوح «كان نوح رجلاً بارًا كاملاً في أجياله وسار نوح مع الله». ذهب أبناء آدم الخاطئ وبقي أبناء نوح البار، فأين آدم وأين خطيئته، وأين وزرها العالق بالبشر.

يقول سبحانه عن نوح ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأعراف: ٥٩ - ٦٤).

وما حدث أيام نوح حدث في عهد لوط، فقد كثرت شرور الناس وخاصة وخاصة شرور قومه إذ اشتهر عنهم ممارسة الفحشاء والشذوذ الجنسي وكافة أنواع المعاصي، وشاء سبحانه أن يهلك البلدة بشرور أبنائها فأمطرت السماء نارًا أحرقت البلدة بسكانها، ولم ينج إلا لوط والمؤمنون معه، حتى زوج لوط نفسها كانت من المهلكين[1].

ويقول الرحمن عن لوط: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأعراف: ٨٠ - ٨٤).

---

(١) سفر التكوين الأصحاحين: ١٨، ١٩.

عفا الله عن آدم بعد ندمه واستغفاره، وفرق في الجزاء بين ولديه هابيل وقابيل، وأنجى الصالحين وأهلك الكافرين، في عهد نوح ولوط، وفي كل حين، وحاسب كلاً بحسب عمله.

• الصلب والرسالة:

سؤال يلح علي منذ البداية، يندفع إلى رأسي فأستمهله، ولكنه يعود ليطل برأسه ويفرض نفسه.

وهل كل ما فعله عيسى في حياته أنه صلب؟ وهل جاء عيسى فقط ليصلب بفرض صحة الرواية؟ وهل كل رسالة عيسى للناس هي الصلب والكفارة؟

لو كان هذا صحيحًا لنزلنا بالمسيح عيسى إلى مرتبة لا يرضاها له أي مؤمن بالله، فكم من الأنبياء والأولياء قبل عيسى ومعه وبعده، صلبوا وعذبوا بلا ذنب ولا خطأ، ولم يقدم هذا أو يؤخر في موضوع رسالتهم. فما من أحد من الناس عاهد الله على الخلود، وما من أحد من الناس خيره الله كيف يموت، فالموت حق على العباد يدركهم في أية لحظة وبأية طريقة، والأنبياء عباد كسائر الناس ليسوا خالدين، يقول الرحمن لخاتم المرسلين ﷺ ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**﴾ (الأحقاف: ٩)، ويقول له أيضًا ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ (الزمر: ٣٠).

صلب ثلاثة أحدثهم يزعمون أنه عيسى، والآخران لصان فما الفرق؟ إن الفرق يكمن في مبادئ هذا ومبادئ هذين، وفي أعمال هذا وأعمال هذين، في رسالة هذا ورسالة هذين، إن قيمة عيسى ليس في أنه صلب أو لم يصلب، وإنما قيمته وأهميته في رسالته العظيمة التي أرسله الله بها لهداية الناس. إن البشر في احتياج إلى عيسى من أجل رسالته وتعاليمه السامية، فذبح عيسى - على فرض حدوثه - حادث عادي يتكرر كل يوم ويحدث للأبرار والأشرار،

ولكن العبرة والقيمة بالرسالة، جاء عيسى ليحمل للناس رسالة الهداية والخير، وليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وليدعوهم إلى عبادة الإله الواحد، وحادث صلبه على فرض حدوثه، لا يزيد في هذه التعاليم العظيمة ولا ينقص منها، فالتعاليم باقية والرسالة محفوظة، وهي التي تخبر عن عيسى وحكمته وعظمته، لقد جاء عيسى يدعو إلى الحب والإيثار وإلى الشفقة والرحمة، وإلى اتباع الخير وترك المعاصي، وسواء صلب أو لم يصلب فهذا لا يقدم ولا يؤخر في تعاليمه، فعيسى ليس محتاجًا إلى دموعنا نذرفها على موته، ولا لقلوبنا تنفطر حزنًا على مأساته، فعيسى أكبر من ذلك وأجل، وحادث الصلب منع هذا المعلم العظيم من أن يستمر في رسالته ومن أن يكمل ما بدأه، والراجح أنه لو استمر مدة أطول من السنوات الثلاث التي قضاها يدعو إلى الله لأمد العقائد بزاد عظيم ولاستمر تدفق فيض تعاليمه القيمة، ولطبق تعاليمه النظرية تطبيقًا عمليًا ومزج العلم بالعمل، ودعم المبادئ بالتجارب، ولأثرت المسيحية بمكوثه إثراء كبيرًا.

يحدثنا القديس المسيحي توما الأكويني عن شكوكه في صحة روايات الصلب فيقول «توجد آراء مختلفة، فيزعم البعض أن ابن الله (عيسى) كان يتجسد حتى ولو لم يخطئ آدم، ويرى البعض الآخر خلاف ذلك، ويبدو أنه من الأصوب الانتماء إلى الرأي الثاني، فإن ما هو متعلق بإرادة الله وحدها ليس لنا أن نعرفه إلا بالمقدار الذي يكشفه لنا الله بواسطة كتبه المقدسة، والحال أن الكتاب يقول لنا دائمًا إن خطيئة الإنسان الأول هي الدافع لتجسد ابن الله ، وعليه يظهر أن هذا السر إنما رتبه الله كدواء للخطيئة بحيث إنه لولا الخطيئة لما كان التجسد»[1].

صلب عيسى أو قتل أو مات، فهو على أي الأحوال قد ذهب ولم تبق إلا

---

(١) كتاب فرنسيس فريبه : التجسد - تعريب لويس أباديز ص ١٣٤ وما بعدها.

رسالته، ومات محمد أو قتل، فقد ذهب أيضًا ولم تبق سوى رسالته، يقول سبحانه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

هذا وذاك لا ينقص ولا يزيد، ولا يبدل ولا يغير في رسالة عيسى أو محمد أو غيرهما من الرسل الكرام، فعلى أي وضع كانت نهاية الرسول على الأرض فهذا لا يضيف أو يحذف من رسالته وبلاغه، فالرسل إلى زوال والحق باق يحدث الأجيال، وعيسى ومحمد وباقي الرسل، ليس أحد منهم موجودًا الآن ليحدثنا عن مضمون رسالته ومفهوم تعاليمه، لقد ذهبوا جميعًا ولم تبق إلا تعاليم رب العالمين، التي حملها هؤلاء الرسل إلى البشر، تعاليم غالية هي الباقية واتباعها هو مفتاح الخير والسعادة في الدارين.

• رأي الإسلام:

قبل الحديث عن رأي الإسلام في صلب المسيح يلزمنا الرجوع إلى فكرة المخلص الذي كان عليها رجاء بني إسرائيل وقت ميلاد عيسى وقبله بزمن طويل، عندما كانت بلادهم مستعمرة رومانية صغيرة، يذيق المحتلون أهلها الأهوال والوبال، ويتطلع الشعب المستعبد إلى بطل يخرج من بين الصفوف ويقودهم إلى التحرر ويعيد إليهم أمجاد داود وسليمان، عليهما السلام، ويخضع لسلطانهم الأمم المجاورة، ويتنبأ الأنبياء القدامى عن هذا البطل المخلص فيقول عنه أرميا «في أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمنا»[١].

ويقول ميخا مناجيًا مدينة داود المتوقع أن يخرج منها البطل الموعود «أما أنت يا بيت لحم وأنت صغيرة أنت تكوين بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطًا على إسرائيل»[٢].

---

(١) أرمياء (ص ٢٢ : ٦). (٢) سفر ميخا (ص ٥ : ٢).

فرح بنو إسرائيل بعيسى الذي أتى ليخلصهم من العبودية، وليخضع الأمم والشعوب لسلطانهم وأخذوا يعدون العدة للمناداة به قائدًا لهم وزعيمًا، وتنصيبه ملكًا عليهم ليقوم بتنظيم صفوفهم وقيادتهم في حرب التحرير، وكانوا ينادونه كثيرًا بلقب «ملك اليهود» وقد ظهر ذلك واضحًا أيضًا في الاستقبال الكبير الذي استقبله به أهل أورشليم العاصمة عند دخوله إليها قبل الفصح اليهودي، إذ فرشوا ملابسهم في طريق موكبه وأخذوا يلوحون له بالرياحين والأغصان مرددين «السلام يا ملك اليهود»، «تبارك الآتي باسم الرب».

بل لقد عزم اليهود على تنصيب عيسى رسميًا ملكًا عليهم، ولكنه رفض العرض وهرب من الاحتفال، يقول الحواري يوحنا «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكًا انصرف أيضًا إلى الجبل وحده»[1].

أتوا إليه مرة يستغفرونه في شأن الضرائب التي يثقلهم بها الرومان، وتوهموا أنه سيدعوهم إلى الامتناع عن تأديتها عصيانًا وتمردًا على المغتصبين، ولكنه أمرهم بدفع الجزية والمكوس لقيصر وبالخضوع لكافة السلاطين «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وتحطمت آمال اليهود في عيسى، وذابت أحلامهم في الخلاص على يديه، وفي استعادة المجد الغابر، وكانت صدمتهم الكبيرة فيه كافية لتحويل الحب إلى كراهية.

يصور لنا بترسون سميث مدى الحقد والمقت الذي شعر به بنو إسرائيل تجاه عيسى بعد صدمتهم فيه، متحدثًا عن يهوذا تلميذ عيسى الذي وشى به لشعوره بنفس المرارة تجاه من وضعوا عليه كل آمالهم فحطمها، يقول سميث «الحق أن يهوذا لم يكن مجرد محب للمال ساع إليه، ولثلاث سنوات خلت كان شابًا

---

(١) إنجيل يوحنا (ص ٦ : ١٥).

يهوديًا نقيًا نابهًا، شغف بدينه وكبرت آماله في (المسيح المنتظر)، وترك كل شيء وتبع المسيح واستمر يسير معه بعد ما تركه الآخرون ولم يعودوا يتبعونه، وأكبر الظن أن مطامعه التي كانت في أمان خابت وملأ خيبتها قلبه مرارة، ساقته إلى النفرة من المسيح فالعداوة له ثم الخيانة»[1].

كره بنو إسرائيل عيسى وطاردوه وحاربوه، وحاولوا قتله ولكن الله سبحانه لم يرد لعبده الصالح الهلاك بأيدي سفاكي الشعوب، فهرب عيسى منهم ورفعه ربه إليه، ووضع شبهه على آخر، صلب بدلا منه.

• المصلوب خائن عيسى:

يأتي القرآن ليعلن هذه الحقيقة، التي رفعت قدر عيسى وردت عنه الشبهات، الحقيقة التي تؤكد أن الله سبحانه لم يرض لرسوله الكريم عيسى أن يذبح بأيدي حثالة الشعوب وأنجس الأمم، بل لقد هيأ له الإعزاز والتكريم ورد عنه الكيد والأذى، وكف عنه الاعتداء ورفعه إليه، وجعل المصير الدون الذي أرادوه هو مصير تلميذه الخائن الذي وشى به عند أعدائه، فرد الله خنجر الخائن إلى صدره وأغمد نصله في قلبه، وأماته الميتة التي أرادها لمعلمه العظيم.

ويذكر القرآن استجابة الله لتضرعات نبيه ورفعه إلى السماء وتطهيره من الكافرين، وإنقاذه من الأعداء والكارهين، وجعل مكانه في العلا بين المقربين، يقول جل وعلا ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٤ - ٥٥).

هذا هو القرآن يكذب ادعاءات أبناء صهيون بصلب عيسى، ويفند افتراءاتهم ببغاء أمه، ويؤكد أن عيسى ابن البتول لم يذبح بأيدي سفاحي الشعوب، بل

(١) بترسون سميث: حياة يسوع ص ٢٨٧ وبعدها.

رفعه الله إليه، وألقى شبهه على تلميذه الخائن، فعذب وصلب بدلا من معلمه واليهود يظنونه عدوهم عيسى، تصور بنو إسرائيل أنهم قتلوا عيسى رسول الله، ولكنهم قتلوا الخائن يهوذا الذي وشى بمعلمه، فأذاقه الله جزاء خيانته وألقاه في الحفرة التي حفرها لسيده، وأخذه أصحابه الذين وشى إليهم فعذبوه وصلبوه مع اللصين ظانين أنه عيسى، وعيسى جالس في الملكوت يتنعم مع الملائكة والصديقين، يقول علام الغيوب داحضا ادعاءات اليهود والكفار ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ (النساء: ١٥٧ - ١٥٨).

هذه الحقيقة التي أعلنها القرآن في وضوح والتي رفع بها قدر عيسى وأعلى مكانته، ليست بدعا أتى به القرآن، وليست جديدة على أصحاب الضمير والوجدان، فهذا الذي بينه القرآن وجلاه، إنما تؤيده فيه التوراة، بل ونلمس في الأناجيل نفسها صداه.

تحدثنا التوراة أن الله سبحانه استجاب لتضرعات مسيحه وخلصه من أعدائه وأسقطهم على الأرض عندما أتوا للقبض عليه ورفعه هو إلى السماء، يترنم داود في مزاميره بقوله «الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه» (مزمور ٢٠).

هذا الذي يقوله داود يطابق ما ورد في الأناجيل عن لحظة إتيان اليهود للقبض على المسيح عيسى فالأناجيل تقرر أنه عندما تحدث إليهم وعرفهم بنفسه، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، يقول يوحنا «فلما قال لهم إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض» [1] وفي هذه اللحظة رفع الله

---

(١) إنجيل يوحنا (١٨ : ٦).

نبيه إليه وألقى شبهه على تلميذه الخائن، فلما أفاق اليهود من سقطتهم لم يجدوا أمامهم سوى يهوذا فساقوه إلى الذبح.

هذه الحقيقة نلمس صداها في الأناجيل، تحدثنا الأناجيل عن قدرة عيسى العجيبة على التخفي وعلى تغيير شكله وهيئته بحيث إن كثيرين من أصدقائه بل وتلاميذه كانوا لا يستطيعون معرفته، يقول الحواري لوقا عن إحدى المرات التي لم يستطع فيها اثنان من المقربين لعيسى التعرف عليه رغم مقابلتهما له في الطريق، وتعمد عيسى السير معهما والحديث إليهما دون أن يكتشفا شخصيته، يقول لوقا: «وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما، ولكن أمسكت عيونهما عن معرفته»[١].

ليس هذا فحسب بل إن الأناجيل تورد كثيراً من المحاولات المتعددة التي حاول فيها اليهود القبض على عيسى أو النيل منه، ولكنه كان في كل مرة رغم التفافهم حوله واقترابهم منه يختفي ويهرب منهم بأعجوبة، ويمر من بينهم كالشهاب، ويتلاشى في وسطهم كالملح المذاب، ولعل هذه أيضا إحدى المعجزات التي أيد الله بها نبيه لحمايته من أعدائه وكف أذاهم عنه.

يحدثنا الحواري يوحنا عن بعض المرات التي حاول اليهود فيها إمساك عيسى فاشلين، والتي تجاسروا فيها على إلقاء الأيدي على رسول الرحمن فردوا مخذولين، في إحدى هذه المرات كان عيسى يتحدث في الهيكل عن الله الذي أرسله بتعاليم الهدى والرشاد، يقول يوحنا «فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلا: تعرفونني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت، بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني؟ فطلبوا أن يمسكوه ولم يلق أحد يدا عليه»[٢].

---

(١) إنجيل لوقا ص ٢٤: ١٣ - ١٦ .

(٢) يو ٧: ٢٧ - ٣٠ .

ومرة أخرى حاول فيها أعداء الحق إسكات صوت الحق، فردوا على أعقابهم خاسرين، فبينما كان عيسى يخطب في الجموع في اليوم السابق على عيد الفصح اليهودي، اختلف الناس حوله أهو نبي حقا أم دعي؟ يقول يوحنا «فحدث انشقاق في الجمع بسببه، وكان قوم منهم يريدون وأن يمسكوه لكن لم يلق أحد عليه الأيادي» [١].

ومرة ثالثة جرت فيها محادثة بين عيسى واليهود في الهيكل اختلفت الآراء بينه وبينهم فانقضوا عليه وأرادوا قتله، وأمسكوا بالحجارة ليرجموه، ولكنه اختفى من بينهم دون أن يشعروا، يقول يوحنا «فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا في وسطهم ومضى هكذا» [٢].

وفي مرة رابعة اشتد الجدل بينه وبين اليهود، وحمى وطيس المناقشة «فطلبوا أيضا أن يمسكوه فخرج من أيديهم» [٣].

وخامسة.. وسادسة.. ومرات.. ومرات.. بسط الله فيها حمايته على رسوله الأمين، ورد عنه كيد المعتدين، وكف عنه الأذى، ومنع عنه السوء، وأحاطه بالرعاية والعناية والتكريم. يقول سبحانه لرسوله عيسى ﴿ **وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [٤].

يحدثنا الحواري برنابا في إنجيله عن الحقيقة كلها في جلاء ووضوح، فيورد حديث عيسى عن إخبار الله له بخيانة تلميذه يهوذا، وبأنه سبحانه سينقذه من أيدي أعدائه وسيجعل الموت مصير الخائن الذي وشى به، يقول عيسى لتلميذه برنابا «إعلم يا برنابا أنه سيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وأني على يقين من أن من يبيعني يقتل باسمي، لأن الله سيبعدني من الأرض وسيغير

---

(١) يو ١٨: ٤٣ - ٤٤ .
(٢) يو ٨: ٥٩ .
(٣) يو ١٠: ٣٩ .
(٤) سورة المائدة ١١٠ .

منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي».

ويستطرد برنابا شارحا الكيفية التي رفع بها عيسى إلى السماء عندما جاء يهوذا مع الجنود للقبض عليه، فأنقذ الله رسوله من أيديهم، وجرع التلميذ الفاسد الكأس التي أعدها لمعلمه، يقول برنابا «ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جمع غفير، وكان التلاميذ الأحد عشر نياما، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، فأتى.. الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق، وفي الوجه، فصار شبيها بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيدي معلمنا، أنسيتنا الآن؟ ودخل الجنود فأخذوا يهوذا وأوثقوه ظانين أنه يسوع».

ويؤكد القرآن الحقيقة: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء ١٥٧ - ١٥٨).

هكذا أنقذ الله رسوله عيسى عليه السلام وأعز جانبه ورفع شأنه، وجرع تلميذه الخائن جزاء خيانته، فألقى عليه صورة عيسى وصوته، وجعله يموت بأيدي أصدقائه، أما عيسى الأمين فقد رفعه الله إلى السماء، ووضعه مع الصديقين والأبرار، أنقذ الله رسوله عيسى من الصلب كما أنقذ رسوله المصطفى من أيدي المشركين، وخذل محاولاتهم الآثمة لإيذائه وقتله، ونصره عليهم أجمعين، ورفع الله رسوله عيسى إلى السماء كما رفع من قبله رسله

الكرام إدريس وؤليشع وإلياس وغيرهم من الأنبياء الصادقين.

وسبحان ناصر الحق، وزاهق الباطل، ومعلي شأن الصالحين ﴿وكَانَ حَقاً عَلينًا نَصْرُ المُؤمِنِين﴾ .

* * *

الفصل السادس

تأليـه عيـسى

• طبيعة الإله عيسى:

قالوا بتأليه عيسى، ولم يتفقوا على كنه هذا التأليه، وعلى طبيعة هذا الإنسان المؤله.. هل هو من طبيعة إلهية خالصة، أم من طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى إنسانية؟ وهل امتزجت هاتان الطبيعتان في عيسى أم احتفظت كل منهما بخواصها ومزاياها؟ وما نتيجة هذا الامتزاج على فرض حدوثه؟ هل تمخض عن طبيعة نصفها إلهي ونصفها إنساني أم تولدت عنه طبيعة مغايرة تماما عن كلا الطبيعتين الإلهية والإنسانية؟

• المعجزة والإيمان:

أسئلة كثيرة حول عيسى جرها القول بتأليهه، أسئلة اختلف في الإجابة عليها دعاة التأليه أنفسهم، وانقسموا فيما بينهم شيعا وأحزابا، وتناثروا مذاهب وطوائف.

• تأليه العظماء:

وما فعله الناس مع عيسى فعلوه مع غيره من الأنبياء والحكماء والقادة والزعماء، فعلوه مع بوذا في الهند، وفعلوه مع الحكيم كونفوشيوس في الصين ومع زرادشت في فارس، ومع برومثيوس في اليونان، ومع الآلاف غيرهم في

مختلف الأزمان والبقاع.

وحتى في الإسلام نفسه، دين الوحدانية الخالص، فإننا نلحظ فيه محاولات قتلت في مهدها لتأليه إمام الموحدين، محمد عليه الصلاة والسلام، ولتأليه أتباعه من بعده.

يروي قيس بن سعد «أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت: رسول الله أحق أن يسجد له. قال: فأتيت النبي فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك، قال: أرأيت لو مررت بقبري، أكنت تسجد له؟ قال: قلت «لا» قال: «فلا تفعلوا».

قال له أحد أصحابه يوما: أنت سيدنا وذو الطول علينا، فرد الرسول غاضبا: السيد الله، لست سيدا لأحد، لا يستهوينكم الشيطان، إني لا أريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تعالى، فأنا عبد الله ورسوله.

وكان عليه السلام ينهى أصحابه كثيراً عن إطرائه أو مدحه ويقول لهم «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم».

ومع كل هذه التحذيرات، فحين مات عليه السلام، لم يصدق الناس، حتى عمر بن الخطاب أنكر الخبر وهم بقتل من نقلوه إليه، لولا أن تلا أبو بكر على الناس ما تركه لهم محمد قبل موته ببشريته، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [١] .

وهذا علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته، الذي بلغ من علمه وحكمته أن قال الرسول عنه «أنا خزانة العلم وعليّ بابها»، على هذا ألهه الناس في حياته، وألّهوه بعد موته، ومازال بعضهم يؤلهه حتى الآن.

(١) آل عمران ١٤٤ .

ظهر منهم قوم ممن دخلوا الإسلام ادعوا تأليهه، فلما علم بأمرهم دعاهم إليه وقال لهم: ويلكم قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، قال: ويلكم، إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني فاتقوا وارجعوا، فأبوا، ولما أصروا على رأيهم أمر بطرحهم في النار. ومع ذلك فقد بقى بعد موت علي من يدعي بتأليهه، فهذه طائفة النصيرية تدعى أن الله قد حل في جسد علي بن أبي طالب وتكلم على لسانه، ومازال غلاة الشيعة حتى يومنا هذا يسلخون عليا عن جنس البشر، نقول حتى يومنا هذا، في عصر العلم والمدنية، وفي زمن الصواريخ والأقمار الصناعية مازال الناس يؤلهون العظماء والأفذاذ، والزعماء والقادة ويجعلونهم أربابا من دون الله، فهذا إمبراطور اليابان يدعونه ابن السماء ويؤلهونه، وهذا زعيم الصين السابق ماوتسي تونج وصل حب أتباعه له وإيمانهم به درجة التقديس، كانوا يقفون طول الليل أمام قصره حتى بزوغ الفجر ينتظرون خروجه منيرا مع ضوء الشمس، ويحملون تعاليمه في كتابه الأحمر في غدوهم ورواحهم، وفي ملابسهم ومنازلهم وأعمالهم، أكثر مما يحمل أتباع الله كتبهم المقدسة.

يقول عز وجل ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١) .

• تعللات التأليه:

يتعلل دعاة تأليه عيسى ببعض حوادث وألفاظ يقررون أنها هي التي دعتهم إلى إبعاد عيسى عن دائرة البشر ورفعه إلى مرتبة الآلهة، ونحاول في هذه الفقرة

(١) سورة الأعراف ١٧٨ - ١٧٩ .

إيراد هذه الأسباب، ومناقشتها ليتضح لنا مدى نصيبها من الصحة.

• الميلاد العذراوي:

كان ميلاد عيسى من عذراء منفذا للقول بتأليهه، فمادام أنه قد ولد دون أب، فلابد أن الله أبوه، وأنه ليس من جنس الناس.

يقول الحواري لوقا على لسان جبريل عندما بشر مريم بغلامها الزكي «الروح القدس تحل عليك وقوة العلي تظلك فلذلك المولود منك يدعى ابن الله» (١).

ويقول يس منصور «لو لم يولد المسيح (عيسى) من عذراء لكان مجرد إنسان.. فابن الله الأزلي يليق به في حالة تأنسه أن يولد ميلادا عذراويا»(٢).

هذا الميلاد العذراوي لعيسى رغم إعجازه وأهميته فلا يقاس بشيء في جانب القدرة الإلهية ولا يرفع عيسى عن مرتبة الآدميين، ذلك أن خلق عيسى من أنثى دون ذكر إنما هو إتمام لدورة القدرة الإلهية في خلق الإنسان، فالإنسان الأول من أين جاء؟ يقول سبحانه ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾، آدم عليه السلام خلق من العدم دون ذكر ولا أنثى، وحواء خلقت من ذكر دون أنثى، والإنسان العادي خلق من ذكر وأنثى، ثم تمت دورة القدرة الإلهية بخلق عيسى الإنسان من أنثى دون ذكر فهذه صور ميلاد البشر، وكل صورة منها تناظر الأخرى في الدلالة على قدرة الخالق العظيم، ليس منها ما هو هين وما هو صعب في جانب الله.

بل إن خلق الإنسان العادي من ذكر وأنثى لا يقل عظمة عن باقي معجزات الخلق، ولا يغض من شعورنا بإعجازها سوى تكرارها اليومي، فهذه القدرة التي تخلق النطفة وتودعها رحم الأم، وتنتقل بها إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم لحم يكسوها، إلى جنين في صورة إنسان ذو جوارح. يقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) إنجيل لوقا ص ١: ٣٥. (٢) كتاب بيان الحق جـ ٢ ص ١٢٤.

الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٢ - ١٤).

كل دور من هذه الأدوار في المولود الواحد تعجز الإنسانية كلها عن أن تقوم بـه. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج ٧٣).

أما عن خلق حواء من ذكر دون أنثى، فهي أدخل في باب القدرة من خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، فالأنثى بطبيعتها وبحكم تكوينها الجسدي قد خلقت للحمل والولادة، ومن المحتمل جدا أن تحمل المرأة لأوهى الأسباب طبيعية أو صناعية، أما الرجل فليس من طبيعته الحمل والولادة وليس في تكوينه إنجاب الأطفال.

قلنا خلق حواء المرأة وخلق عيسى الطفل، وهنا معجزة أخرى في خلق حواء، لقد خلقت حواء امرأة كاملة التكوين، نامية الجسم والعقل ولم تمر بالأدوار التي يمر بها الأطفال لتنمو أجسادهم، أما عيسى فقد خلق طفلا رضيعا تربى في حجر أمه حتى كبر مع الأيام والسنين.

أما آدم عليه السلام، فمعجزة خلقه رجلا كاملا من العدم، من تراب الأرض دون ذكر ولا أنثى أدخل في باب القدرة الإلهية من خلق عيسى من غير أب، تحدثنا التوراة عن خلق آدم فتقول «وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية» [1].

من التراب صار آدم في لحظة رجلا كاملا، ولم يتوسط في خلقه بشر من أي نوع، ولكن عيسى بمساعدة أمه احتاج لتسعة أشهر ظل في بطنها لكي يخرج

(١) سفر التكوين ص ٢: ٧.

طفلا، واحتاج إلى ثلاثين سنة عاشها على الأرض ليصير كأبيه آدم.

فإذا كان عيسى الإنسان قد صار ابن الله لولادته من أم دون أب، فآدم الإنسان الذي وجد دون أب ولا أم يكون هو الله نفسه.. ولكن خلق هذا وذاك، وولادة هذه وتلك لا يقاس بشيء في جانب قدرة الله وعظمته الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران ٥٩).

• معجزات عيسى:

كانت معجزة عيسى بابا آخر نفذت منه دعوى القول بتأليهه فمادام يشفي المرضى ويحيي الموتى، فهو الله أتي من السماء ونزل إلى الأرض ليعرض على الناس قدرات الآلهة.

يروي لنا الحواري برنابا ما فعله بعض السذج بتحريض الوثنيين بعد قيام عيسى بإحياء ابن أرملة نايين من الموت، يقول برنابا في إنجيله «وكان جيش الرومان في ذلك الوقت في اليهودية لأن بلادنا كانت خاضعة لهم بسبب خطايا أسلافنا، وكانت عادة الرومان أن يدعوا كل من فعل شيئا جديداً فيه نفع للشعب إلها ويعبدونه، فلما كان بعض هؤلاء الجنود في نايين وبخوا واحداً بعد الآخر قائلين: لقد زاركم اليوم أحد آلهتكم وأنتم لا تكترثون له، وحقا لو زارتنا آلهتنا لأعطيناهم كل مالنا، فوسوس الشيطان بهذا الأسلوب من الكلام حتى أنه أثار شغبا بين شعب نايين فقال قوم منهم: إن الذي زارنا هو إلهنا، وقال آخرون: إن الله لا يرى، فلم يره أحد ولا موسى عبده فليس هو الله بالحري ابنه، وقال آخرون: إنه ليس الله ولا ابن الله لأنه ليس لله جسد بل هو نبي عظيم».

وما حدث لعيسى من أجل معجزاته، حدث لتابعين صغيرين من أتباعه هما بولس وبرنابا، عندما شفي بولس رجلا عاجز الرجلين في بلدة لسترة، فقد اعتقد البسطاء وعباد الأوثان أن بولس وبرنابا إلهين من وارد السماء، فأطلقوا عليهما أسماء الآلهة وأقاموا لهما المهرجانات والاحتفالات، ووضعوا أكاليل الزهور على أبواب المدينة، وأحضروا الكباش والثيران يذبحونها للإلهين بولس وبرنابا يقول كتاب الأعمال «فالجموع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم قائلين: إن الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس إذا كان هو المتقدم في الكلام، فأتى كاهن زفس الذي كان قدام المدينة بثيران وأكاليل عند الأبواب مع الجموع وكان يريد أن يذبح» (١).

وتأليه ذوي المعجزات لم يقتصر على عيسى وتلاميذه ولم يبدأ بهم ولم ينته بعدهم، فقد رأينا كم أله الناس الأنبياء وكم صنعوا الأوثان للعظماء، قبل عيسى ومعه وبعده، وفي كافة الأزمان والأرجاء.

وتأليه البشر الذين صنعوا المعجزات نسيان لأصل المعجزات ومجريها وصاحبها، فعيسى وغيره من الأنبياء الذين ماثلوه في معجزاته، هؤلاء جميعا ليسوا إلا آلات وأدوات في يد الرحمن سخرهم لإظهار المعجزات واستخدمهم لإتيان الخوارق، وهو سبحانه صاحب المعجزات يعطي منها ما يشاء لمن يشاء أنى يشاء، ليصدق الناس الرسل ويؤمنوا بالأنبياء.

وليست المعجزات على فرض صحتها ونسبتها لله وليس للمردة والشياطين، إلا وسيلة مناسبة لزمانها لحمل الناس على الإيمان.

يقول سبحانه ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٩).

---

(١) أعمال الرسل ص ١٤: ١١ - ١٣ .

● **لفظ إله:**

يطلق لفظ «إله» في الكتب المقدسة على بعض الأنبياء على سبيل المجاز تعبيراً عن قربهم من الله كسائر أبناء الله الصالحين والبشر والمؤمنين.

يقول عيسى موضحا المجاز «إنما بنوة الله بالأعمال».

ويقول لأتباعه عند صعوده إلى السماء وإنقاذه من أعدائه «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[1].

نعم فبنوة الله ليست باللحم والدم، وليست بالتناسل والتوالد وإنما بالعمل الصالح، وكلما صدق الإيمان وثبت اليقين وحسنت النيات والأعمال، كلما زاد اقتراب الإنسان من خالقه وصار قريبًا من ربه كأنه ابنه، فنحن أبناء الله وصنع يديه.

وإطلاق لفظ إله على الأناسي ورد كثيرًا في التوراة، فقد أطلق على موسى عليه السلام، كما أطلق على حكام وقضاة بني إسرائيل، وعلى غيرهم من الناس، وكان يعني في نظرهم تكريم الشخص الموصوف به باعتباره قريبًا من الله، عاملاً بوصاياه، ودليلاً على القوة والرفعة والعلو.

نرى في الأصحاح السابع من سفر الخروج محادثة بين الله ونبيه موسى، يعلن فيها سبحانه لنبيه أنه جعله إلهًا لفرعون، يقول سفر الخروج «فقال الرب لموسى: انظر أنا جعلتك إلهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك».

ويعود سفر الخروج فيقرر أن الله قد جعل موسى إلهًا لشقيقه هارون أيضًا.

يورد السفر في الأصحاح الرابع منه حديثًا على لسان الله موجهًا إلى موسى عن شقيقه هارون فيقول «هو يكلم الشعب عنك ويكون لك فما، وأنت تكون له إلهًا».

---

(١) إنجيل يوحنا (ص ٢٠ : ١٨).

هنا نجد أن موسى قد صار إلهًا لفرعون وإلهًا أيضًا لشقيقه هارون، وهذا يعني تفوقه وتسلطه على فرعون وهارون، فالله أعطى لموسى القدرة على التسلط على فرعون كما جعله أيضًا سيدًا لأخيه هارون، يأمره فيأتمر وينهاه فينتهي، وكأنه إله وسيد لفرعون وهارون، ليس هذا فقط، بل إن لفظ إله أطلق أيضًا على البشر العاديين من القضاة والحكام الإسرائيليين، فداود عليه السلام يسمي القضاة آلهة، يقول داود «الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي»[1] .

وهذا يعني أن الله موجود وحاضر في محكمة العدل ووسط مجلس الحكم، وأن ما ينطق به القضاة من أحكام إنما هو كلام الله وحكمه، كأن القضاة أنفسهم آلهة، ينطقون بحكم الله وينفذون مشيئته.

ومما يؤكد أن إطلاق لفظ الآلهة على الناس كان من قبيل المجاز المطلق، كإطلاق الألقاب الفخرية والأسماء الشرفية على المبرزين بسبب صفاتهم الكريمة وأعمالهم الهامة بحيث إذا تغيرت صفاتهم أو انحطت أعمالهم سحب اللقب وسقط الشرف، يؤيد هذا ما حدث عند انحراف بعض هؤلاء الآلهة - قضاة إسرائيل - إذ أنهم بعد أن كانوا يقضون بين الناس بالحق وينفذون تعاليم الله، انحرفوا عن جادة الصواب، ومالوا مع الأحساب والأنساب، وقبلوا الرشوة والعطايا من الناس، مما أغضب داود النبي عليهم، فأخبرهم بحكم الله بخلع هذه الألقاب الشرفية عنهم، وبأنهم لا يستحقون أن يتصفوا بصفات الآلهة أو أبناء الله، بل يستحقون السقوط والخزي جزاء انحرافهم وسوء أعمالهم، يقول لهم داود: «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون»[1].

---

(١) مز (٨٢ : ١).

(٢) مز (٨٢ : ٦ - ٧).

وهذه الآية الأخيرة «أنا قلت إنكم آلهة» اقتبسها عيسى من التوراة عند قيامه بالرد على اليهود عندما أمسكوا حجارة ليرجموه لادعائه بنوة الله، قال اليهود لعيسى «لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا»[١].

ويرد عيسى على اليهود موضحًا لهم المجاز، ومؤكدًا أنه في هذا يشبه نفسه بحكامهم وقضاتهم الآلهة الذين ينطقون بحكم الله، فهو أيضًا إنسان حامل كلمة الله منفذ لتعاليمه كأحد أبنائه، يقول يوحنا عن هذه المحادثة «أجابهم يسوع : أليس مكتوبًا في ناموسكم: أنا قلت إنكم آلهة، إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب، فالذي قدسه الأب وأرسله إلى العالم، أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله»[٢].

● **لفظ رب:**

وكما أطلق لفظ إله أو ابن إله في الأناجيل على عيسى، أطلق عليه لفظ رب، أطلقها عليه أتباعه وحواريوه.

في إنجيل لوقا نرى عيسى يصلي لله، وأثناء الصلاة يرقبه التلاميذ، وعندما يفرغ منها يأتي إليه أحد تلاميذه قائلاً: «يا رب علمنا أن نصلي كما علم يوحنا تلاميذه».

عيسى الإنسان يصلي لله ويضرع إليه فيشاهده التلاميذ ويطلبون منه أن يعلمهم كيفية الصلاة، فهو النبي المرسل الذي يعرف التعاليم والشرائع والطقوس والدعوات، فيعلمهم كيفية الصلاة والتقرب لله كما علم النبي يوحنا تلاميذه.

وفي الأصحاح السادس عشر من إنجيل متى نرى محاورة بين عيسى وتلميذه

---

(١) يو (١٠ : ٣١ - ٣٣).

(٢) إنجيل يوحنا (ص ١٠ : ٣٤ - ٣٦).

بطرس يطلق فيها الأخير على عيسى نفس اللقب «رب» يقول متى «فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلاً: حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس»(١).

ونبحث عن تفسير كلمة «رب» التي أطلقت على عيسى فنجد التفسير في صلب الأناجيل نفسها، ففي الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا يروي لنا الحواري المذكور أن عيسى في بداية دعوته كان يسير في الطريق بمفرده فتبعه رجلان صارا فيما بعد من تلاميذه «فالتفت يسوع ونظرهما يتبعانه فقال لهما: ماذا تطلبان، فقالا: ربي الذي تفسيره يا معلم أين تمكث؟ فقال لهما: تعاليا وانظرا، فأتيا ونظرا أين يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم»(٢).

لم يشأ يوحنا أن يطلق كلمة «رب» على عيسى من غير تفسير، فقد خشى أن يتصور الناس أن عيسى إله أو بعض إله، ففسر يوحنا الكلمة في صلب الإنجيل نفسه بأنها تعني المعلم، فعيسى بالنسبة لتلاميذه هو معلمهم وأستاذهم كيوحنا (المعمدان) وغيره من الأنبياء معلموا الشريعة وأساتذة الديانة.

ومرة ثانية يورد يوحنا حوارا بين عيسى ومريم المجدلية تطلق فيها الأخيرة على عيسى لفظ «رب» ويحرص يوحنا أيضاً على تفسير اللفظ خلال الحديث درءا للشك والشبهة، يقول يوحنا «قال لها يسوع يا مريم، فالتفتت تلك وقالت له: ربوني الذي تفسيره يا معلم. قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم، فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب، وأنه قال لها هذا» (٣).

---

(١) متى (ص ١٦ : ٢٢ - ٢٣).

(٢) يوحنا (ص ١ : ٣٨ - ٣٩).

(٣) يوحنا (ص ٢٠ : ١٦ - ١٧).

هنا تظهر حقائق كثيرة.. عيسى الرب هو الإنسان المعلم، البشر التلاميذ هم إخوته، والله أبوه وأبو إخوته التلاميذ وأبو الناس أجمعين، ولفظ المعلم هو اللقب العادي الذي اعتاد الناس إطلاقه على عيسى، فعندما كان عيسى مع تلاميذه في سفينة وسط البحر، وارتفع الموج وخاف التلاميذ «فتقدموا إليه وأيقظوه قائلين: يا معلم يا معلم، إننا نهلك» [١].

يقول الأستاذ العقاد أن عيسى «سمي المعلم ويحق عند تلاميذه وخصومه، ونودي به في مختلف المجامع والمحافل، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وإحياء روحي عن طريق التعليم» [٢].

ويحدثنا ستيفن نيل عن استعمالات كلمة رب فيقول: «إن الكلمة اليونانية الأصلية التي معناها رب يمكن استعمالها كصيغة للتأديب في المخاطبة فسجان فليبي يخاطب بولس وسيلا بكلمة (سيدي أو ربي: أعمال ١٦ - ٣٠). ولكن يمكن أن تستعمل بمعنى ارفع وأرتفع، وكانت تستعمل وصفا للامبراطور في كل أنحاء الامبراطورية الرومانية كما كانت تستعمل أيضا لملوك اليهود، وكانت اللفظة لقبا من ألقاب الكرامة خلع على كثير من الآلهة الوثنية وخاصة آلهة أديان الأسرار، ولهذا السبب ذهب بعض العلماء إلى أن لفظ «الرب» أطلق أولا على يسوع في الجماعات الأممية الناطقة باليونانية وذلك لأنه هو الوصف الذي خلعوه على آلهتهم قبل أن يعتنقوا المسيحية، وكان من الهيّن على أولئك الأمم أن يقبلوا هذا اللقب الذي كان مألوفا لديهم» [٣].

والواقع أن لفظ رب كان يستعمل في كثير من المجتمعات وخاصة في الأزمنة القديمة بقصد التكريم والتعظيم، ويتكرر اللفظ كثيرا في أسفار التوراة بمعنى سيد

---

(١) لوقا (ص٨ :٣٤) . (٢) عباس العقاد: عبقرية المسيح ص ١٦٦ .

(٣) ستيفن نيل: من هو المسيح - ترجمة حبيب سعيد ص ٤٩ .

أو معلم، بل لقد ورد في القرآن الكريم بمعنى سيد أو عائل، فيوسف عليه السلام يتحدث عن سيده العزيز فيقول عنه ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ (١)، ولم يخطر ببال أحد أن يوسف الصديق يشرك بالله، أو يؤله سيده الذي رباه، بل يدعوه ربه بمعنى أنه عائله وصاحب الفضل عليه.

وحتى الآن نرى الكثيرين منا يتحدثون عن عائل الأسرة أو رئيس المكان فيقول رب الأسرة ورب الدار، ولم يدر بخلد أحد عند سماعه هذه الكلمة أن رب الأسرة هو معبود الأسرة أو أن رب الدار هو إله الدار بل إن هذا اللفظ لا يعني سوى التكريم والتقدير للشخص الذي يطلق عليه، وما أطلق على عيسى إلا تقديراً له بصفته المعلم والنبي، ولم يعن به أحد على الإطلاق إشراكا بالله أو تأليها لمن أطلق عليه.

• الله لا يُرى:

الله تبارك وتعالى يملأ الكون ويسيطر على ذرات الوجود، ويحيط بأجزاء السموات والأرض، لا يحتويه مكان ولا يحده زمان.

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣).

حقيقة وردت في كافة الكتب السماوية واعترفت بها كافة الأديان.

طلب موسى أن يرى وجه الله، فأجابه سبحانه «لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (٢).

ويروي القرآن هذه الحادثة فيقول: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٣. (٢) سفر الخروج ص ٢٣: ٣٠.

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١] .

هذه هي الخشية لله والإجلال والرهبة لعظمة الله، حتى الجبال تخشع وتتفتت وتهلع لجلال القدسية والجبروت.

هذا يوحنا يعلن في الأصحاح الرابع من إنجيله أن «الله روح». ويشرح لوقا معنى العبارة فيقول: «والروح ليس له لحم أو عظام.

ليس هذا فحسب، بل إن الأناجيل تؤكد الحقيقة التي يعرفها الكافة، أن الله لم يتجسد ولم يره أحد من الناس، ولا يستطيع أحد أن يراه».

يقول بولس في رسالته إلى أهل مدينة كولوسي، إن الله هو «غير المنظور»، ويقول في رسالته إلى صديقه تيموثاوس «الله لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» [٢] .

ويقول يوحنا «الله لم يره أحد» (يو ٦ - ١٨).

ويقرر الأستاذ عوض سمعان «إن المتفحص لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح، يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان، ولم يتصوروا على الإطلاق أنه إله، ولكن لماذا؟ لأنهم أي الرسل والحواريين كيهود كانوا يعلمون تمام العلم أن الاعتراف بأن إنسانا هو الله يعتبر تجديفًا يستحق الرجم في الحال، ولأنهم كيهود أيضا كانوا يستبعدون أن يظهر الله في هيئة إنسان، نعم كانوا ينتظرون «المسيا» لكن المسيا بالنسبة إلى أفكارهم التي توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتيهم من عند الله، وليس هو ذات الله» [٣] .

اعتراف صريح يفضح كثيراً من البهتان الذي حاول البعض إدخاله على

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .
(٢) تيموثاوس ص ٦:١٦ .
(٣) عوض سمعان: الله - طرق إعلانه عن ذاته ص ٢٨ .

الحقائق، يفضح كذب القائلين بأن الحواريين ألهوا عيسى أو اعتبروه فوق الناس، فهؤلاء الحواريون هم التلاميذ كتّاب الأناجيل، وليس في الأناجيل الحقيقية ما يفيد تأليها لعيسى، بل إن هذا الاعتراف يفضح أيضاً افتراءات البعض بأن بعض آيات التوراة تحدثت عن عيسى الإله وتنبأت عن ظهوره في الجسد، هذا الاعتراف يدحض هذه الترهات ويؤكد أن نصوص العهد القديم كتبها يهود موحدون أتباع لموسى، لم يتصوروا قط بأن إنسانا هو الله أو أن خالق الكون سينزل إلى الأرض ويعاشر المخلوقات، فالقول بهذا تجديف وكفر يستحق الموت، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٥١).

• القرآن والتأليه:

وصدق رب العالمين في كتابه الأمين، إذ يعلن للناس جميعا أن عيسى أحد مخلوقاته التي أنشأها من العدم، والتي يملك أنفاسها وروحها وحياتها، وخلقها وهدمها وإفناءها، عيسى وأمه ومن في الأرض جميعا في قبضة الرحمن، وكل من يقول غير ذلك، أو يعتوره شك في ذلك، وكل من يدعى أن عيسى المخلوق هو الله الخالق القادر فهو كافر ضال أثيم، طمس بصره وبصيرته، وتبخر عقله وحسه، ومات ضميره وقلبه، فاستحق جزاء الكافرين، النار وبئس القرار، يقول جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧).

ويقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [(١)] .

ثم ينبه الكتاب الكريم إلى الحقيقة الهامة وهي أن رسل الرحمن الذين ائتمنهم على رسالته وحملهم شريعته، واختارهم لهداية الناس، واصطفاهم للدعوة للخير، لن يخونوا الأمانة أو يهدموا الثقة، ويدعوا الناس إلى تأليهم أو عبادتهم من دون الله، هذا مالا يمكن أن يحدث من رسل الله ومختاريه، ومالا يتصور أن يرتكبه أحباء الله وأصفياؤه، ولكنهم دائما عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام في قبضة الرحمن يدعون الناس إلى عبادته وحده دون شريك أو شبيه، يقول أصدق القائلين: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [(٢)] .

وفي تشبيه جميل ومحاورة شائقة يستحضر القرآن مشهدا من مشاهد يوم القيامة، يسأل الله فيه عيسى عما نسبه إليه الكافرون، ويشهد سبحانه رسوله على هؤلاء الضالين، الذين انحرفوا عن الطريق، وحادوا عن الحق، ونسبوا إلى نبي الله ما هو منه بريئ، يقول تبارك وتعالى لرسوله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[(٣)] .

وصدق الله، وصدق رسوله عيسى، وصدق المؤمنون بالحق، وكذب الكافرون، وباءوا بالخزي والخسران.

(١) سورة مريم الآيات (٨٨ -٩٥). (٢) سورة آل عمران ٧٩ .

(٢) سورة المائدة ١١٦ - ١١٧ .

الفصل السابع

ابن الإنسان

أرسل عيسى للناس برسالة من عند الله، يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، يأمرهم بالخير ويفعله ليقتدوا به، وينهاهم عن الشر ويهجره لينتهوا عنه، فرسول الناس من جنس الناس، ونبي البشر من طبيعة البشر، فليس من المعقول ولا المقبول أن يأتي للناس من هو غريب عنهم، ولا يستطيع أن يرشد الناس من ليس من طبيعتهم ولا جبلتهم، ليس من المعقول ولا المقبول أن يأتي إله أو ملاك، أو طير أو حيوان، أو جن أو شيطان، ليهدي من هم من غير طبيعته وجنسه، فكل مخلوق منا يتأسى ويقتدي بالمخلوقات أمثاله، الحيوان يقتدي بالحيوان، والملاك يتأسى بالملاك، والإنسان يقلد الإنسان، والجان يحاكي الجان، والشيطان ينافس الشيطان، ولا يستطيع الإنسان أن يقتدي بالآلهة أو الملائكة أو الجان.

ومهما وجد الإنسان في غير البشر من الصفات والمواهب والملكات ما قد يثير إعجابه وافتتانه، فلن يفكر في تقليد من أعطوا ملكات واستعدادات تغاير ما أعطيه منها، فمهما أعجب إنسان بخفة الغزال، أو قوة الأسد، أو صبر الجمال، أو ثبات الجبال، أو نظر الصقور، أو سرعة الطيور، أو بأية صفة من صفات غيره من الكائنات والمخلوقات، فلن يفكر في محاولة تقليدها أو محاكاتها لتيقنه

أن هذا ضرب من الاستحالة بل نوع من الجنون، وذلك للاختلاف الواضح بين البشر وباقي الكائنات في الصفات والقوى.

من أجل هذا لم يبعث الله للناس رسولا إلا من نفس طبيعتهم وخلقتهم، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وتتبع أفعاله أقواله، ويسير سلوكه على هدى تعاليمه، فيقتدي به الناس، وينهجون على منواله، يولد بينهم ويعيش في وسطهم، يأكل ما يأكلون ويلبس ما يلبسون، ويحيا الحياة كما يحيون، يحس بأحاسيسهم وينفعل بانفعالاتهم، تعترضهم المشاكل أو تعتريهم المصاعب فيهرعون إليه، إلى من صادف مشاكلهم ومتاعبهم وعاش فيها وكابدها، فيدلهم على كيفية مواجهتها والتغلب عليها بنفس المكنات التي في طوع البشر، وليس بمكنات الآلهة والشياطين، أو الوحوش أو الجان.

ولو بعث الله للناس رسولا من غير البشر لما اقتنعوا به ولما تبعوه أو اقتدوا به، فشتان بين طبائع الناس وطبائع غيرها من الكائنات، وكيف للإنسان أن يتخطى عتبة البشرية وحدودها الضيقة ليقلد ملاكا أو إلها، أو حيوانا أو جانا، إن كل ما سينطق به هذا الرسول الغريب عن البشر لن يكون في نظرنا إلا ضربا من الهراء والعبث ونوعا من السخرية والاستهزاء، قد نعجب بما يقول - هذا إذا فهمناه - ولكن كيف لنا تنفيذه؟ وكيف لنا تقليده ومحاكاته، كيف نساير هذا الذي اختلفت طبيعته عنا، وتميزت ملكاته منا؟!

إن الإنسان لا يرتاح إلا لإنسان مثله، له نفس صفاته وأحاسيسه وانفعالاته، بل إننا كثيراً ما نحس بالرهبة والشك نحو الغرباء والمختلفين عنا في اللغة أو اللون أو البيئة أو التقاليد مع أنهم بشر مثلنا، فكيف إذا كانوا من جنس غريب عنا مغاير لنا مختلف منا، ثم جاءوا يدعوننا إلى الاستماع إليهم وإلى الاقتداء بهم، هل يمكننا حتى فهمهم؟ أغلب الظن أنهم يسخرون منا.

حقيقة جلاها القرآن في أروع بيان، يقول سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٤ - ٩٥).

الرسول من جنس المرسل إليهم، رسول الناس إنسان، ورسول الملائكة ملاك، رسل الإنسان من نفس الإنسان، من نفس طبيعته وجبلته وخلقه وعالمه، فالإنسان خليفة الله على الأرض، الذي حمل أمانة الوجود، خليق بأن يأتيه من ذاته الدرس والعبرة، وأن يأخذ من نفسه الموعظة والمثل، وأن يحمل بنفسه الرسالة والشريعة، يقول عز من قائل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٧).

من أجل هذا كان عيسى إنسانا وابن إنسان، ولد كما يولد الناس، وعاش كما يعيش الناس، وذهب كما يذهب الناس، حملت به مريم وظل في بطنها وبين أحشائها طوال تسعة أشهر، تلقى خلالها الغذاء والنماء، وتكون جسمه وعظمه، وعروقه ودمه وخلاياه ولحمه، وسائر صفاته من جسد أمه النحيل، حتى إذا تمت أشهر الحمل لفظه رحمها، فقمطته ووضعته في حجرها، وألقمته ثديها تسد جوعه وتسكت صراخه، فإذا بال غسلته بالماء وألبسته نظيف اللباس. كم من الليالي سهرت عليه في صحته ومرضه، وكم أعطت من نفسها لبكرها عيسى قبل أن تلد غيره من الأبناء والبنات، وكم انتظرت وزوجها وأهلهما مرور الأيام ليكبر عيسى في الجسم والعقل، وكم لقنوه التعاليم والشرائع اليهودية ليصير بارا كوالديه وأهله، وقليلا ما أنبوه أو عاقبوه فقد كان في معظم الأحيان خاضعا لأمه وأبيه، ولما صار صبيا يافعا علمه أبوه يوسف حرفته، فصار نجارا ماهرا.

ثلاثون سنة عاشها عيسى قبل أن تأتيه الرسالة، وقبل أن يختاره الله لهداية

الناس، لم يرفيه أهله وذووه وسائر مواطنيه أكثر من نجار عادي أمين، يأكل خبزه بعرق جبينه، ويشقى ويكدح طوال يومه ليقوت أمه الأرملة وإخوته اليتامى.

● الأكل والشراب:

خضع عيسى الإنسان لكافة الغرائز الإنسانية، أكل كما يأكل الناس، وشرب كما يشرب الناس، شرب الماء والخمر، يتحدث عيسى عن نفسه مخاطبا اليهود «جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر»(١).

وأكل عيسى للطعام قرره القرآن، يقول سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥).

وعيسى الإنسان كغيره من الرسل أبناء البشر يأكلون الطعام ويشربون الماء لا يختلف عن إخوته الأنبياء في شيء، ولا يختلفون جميعا عن باقي الناس أبناء آدم في شيء، حقيقة يجليها الرحمن لخاتم المرسلين فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠).

وأكل الطعام يقتضي إخراج فضلاته، وشرب الشراب يستلزم إنزال فائضاته، وإلا امتلأ الإنسان وانتفخ وتسمم ومات، وقد تعفف القرآن عن ذكر التبرز والتبول بالنسبة لعيسى وباقي الرسل تساميا منه في التعبير، واكتفاء بما يفهم من النتيجة الطبيعية للأكل والشراب.

(١) متى (ص ١١ : ١٩)، لوقا (ص ٧ : ٣٤).

● النوم والراحة:

النتيجة التالية للطعام والشراب، وللجهد والعمل هي التعب والخوار، والرغبة في النوم والراحة لكي يستعيد الإنسان صحته ولكي يستفيد من الطعام والشراب، ثم يواصل الكد والكفاح، ولولا النوم والراحة لفقد الإنسان قوته وانهارت أعصابه، ولما استطاع مواصلة حياته أو إتمام رسالته.

وكم تعب عيسى وطلب الراحة، وكم شقي عيسى ورغب في النوم ثم استيقظ أكثر قوة ونشاطا وحيوية، وكان نوم عيسى أكثر من اللازم بل كان نومه ثقيلا من كثرة إرهاقه وتعبه، فكثيراً ما كان يتجول في القرى ويدعو الناس في الطرقات فيغشاه سلطان النوم رغم إرادته من كثرة الإرهاق فينام وسط الناس، تحدثنا الأناجيل عن إحدى المرات التي نام فيها عيسى في ظروف كانت تستلزم اليقظة، نام في سفينة صغيرة وسط البحر والموج وبين التلاميذ، الكل مستيقظ وعيسى نائم، تقول الأناجيل «وفي أحد الأيام دخل سفينة هو وتلاميذه، فقال لهم: لنعبر إلى عبر البحيرة، فأقلعوا وفيما هم يسيرون نام، فنزل للتّو ريح في البحيرة وكادوا يمتلأون ماء، وصاروا في خطر، فتقدموا إليه وأيقظوه قائلين: يا معلم يا معلم إننا نهلك» [1].

رغم الرياح العاتية والأمواج المتلاطمة، ورغم المياه الغزيرة التي انصبت على السفينة الصغيرة وسط البحر، فجعلت تتقاذفها كالريشة في مهب الرياح، ورغم كل الضوضاء التي أحدثها الركاب خوفا وجزعا فقد ظل عيسى نائما لا يحس بشيء من هذا ولا يشعر به، ولولا إيقاظ التلاميذ له وطلبهم منه أن يصلي لله طلبا للنجاة لكان من الممكن أن يهلكوا جميعا بالسفينة وفيهم عيسى نائما.

---

(١) الأناجيل لوقا ٧:٢٢ - ٢٤، متى ٨:٢٣ - ٢٧، مرقس ٤:٣٥ - ٤٠.

ويؤكد القرآن الحقيقة الساطعة وهي أن الله سبحانه علام الغيوب يحيط بذرات السموات والأرض، ولا تسقط ورقة على الأرض أو قطرة من السماء إلا ويعلمها، لا يسهو ولا يغفل ولا يمسه التعب أو اللغوب، ولا يحتاج إلى النوم أو الراحة، يقول الكتاب الكريم: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ (البقرة: ٢٢٥).

• مواقف ضعف:

عيسى الإنسان كثيراً ما ضعف أمام الطبيعة كما ضعف أمام غيره من الناس، مواقف ضعف ألمت بعيسى فأخرجته عن طوره، وجعلته يركتب هفوات تحسب على الأقوياء، مواقف ضعف أحالت هدوء عيسى غضبا وصخبا، مواقف ضعف جزع لها عيسى فهرب، ومواقف ضعف ألمت بعيسى فحزن وبكى، ومواقف ومواقف كلها تعرض لها كافة الأنبياء البشر.

• الغضب والصخب:

كانت طبيعة عيسى العادية الهدوء والتسامح، وتجنب المتاعب والمشاكل ولكن الظروف كانت تخرجه في بعض الأحيان عن طوره فيغضب.

دخل مرة هيكل سليمان ليعلم قومه الشريعة فشاهد باعة البهائم والدواجن وصيارفة النقود يزدحمون صحن الهيكل وبابه، فحمى غضبه كرامة لهيكل اليهود وقام بقلب موائد الباعة والصيارفة ويفسد البضاعة ويضرب بالسياط بالأيدي، تقول الأناجيل «وكان فصح اليهود قريبا فصعد يسوع إلى أورشليم، ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرا وغنما وحماما والصيارف جلوسا، فصنع سوطا من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم

الصيارفة وقلب موائدهم» [١].

● الخوف والهرب:

كان عيسى الإنسان يخاف شرّ أخيه الإنسان، كان يهرب من أعدائه ويختفي من مناوئيه، ركبت فيه غريزة حب البقاء كما ركبت فينا، فكان يخشى الإيذاء ويتفادى الضرر، ويخاف على حياته أن يسكت خلجاتها أعداؤه قبل أن يتم الرسالة التي بعثه الله بها.

تحدثنا الأناجيل أن عيسى كان يسارع بالهرب بمجرد شعوره بالخطر، وعند أول بادرة لمحاولة إيذائه أو الاعتداء عليه، وبالغت الأناجيل في قدرة عيسى على التخفي والهرب فقررت أنه كان ينفلت من وسط الناس فلا يشعرون به، وكان يفر منهم إلى أبعد الأماكن فلا يستطيعون له إمساكا ولا يملكون به إلحاقا.

يحدثنا الحواري متى أن أحد طوائف اليهود غضبوا على عيسى لتمييزه تلاميذه، وأن الفريسيين أرادوا القبض عليه وقتله، ففهم عيسى مرادهم وانصرف عنهم دون أن يشعر به أحد، يقول متى «فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه، فعلم يسوع وانصرف من هناك» (متى ١٢: ١٤ - ١٥). ومرة أخرى دبت مشادة كلامية بين عيسى وبعض اليهود فغضب القوم لحديثه، وأمسكوا بالحجارة لكي يرجموه، ولكنه كعادته اختفى وهرب من بينهم دون أن يحسوا به، يقول يوحنا «فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا في وسطهم ومضى هكذا» [٢].

ومرة ثالثة حاولوا أن يمسكوه فأفلت من بين أيديهم «فطلبوا أن يمسكوه فخرج من أيديهم» [٣].

---

(١) انظر الأناجيل يوحنا ٢: ١٣ - ١٥، متى ٢١: ١٢ - ١٣، مرقس ١١: ١٥ - ١٦.

(٢) إنجيل يوحنا ص ٨: ٦٩.

(٣) يوحنا ١٠: ٣٩.

ومرة رابعة هاجم عيسى الأنبياء الذين سبقوه فغضب جميع السامعين «فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى» (١).

• **الحـزن والبكـاء:**

بكى عيسى في ظروف كثيرة، بكى خوفا على مصيره من أن يمسك به اليهود ويقتلوه، وتصبب منه العرق حزنا وخوفا حتى صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض كما تقرر الأناجيل (٢) .

بكى عيسى مـرارًا، بكى من فراق أحبابه، وعلى موت أصـدقائه، أتت إليه يومًا صاحـبته مريم وأخـبرته بموت شقيـقها العازر فانزعج عـيسى واضطرب، وحزن وتألم، وبكى وتأوه، يقـول يوحنا «فلما رآها يسوع تبكي واليـهود الذين جاؤوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب، وقال: أين وضعتموه، قالت له: يا سيد تعال وانظر، بكى يسوع، فقال اليهود انظروا كيف كان يحبه» (٣).

وعيسى كان يحب عاصمة بلاده أورشليم، وكان يريدها أن تسود العالم وأن تحكم البـسيطة، ولكن يبـدو أنه شاهـد لها حلمًـا أزعجـه، شاهدها منكسـرة مدحـورة، محـاصرة بالأعـداء والطامعين، مهـدمة على بنيـها فـحزن عـيسى وانزعج، وبكى واضطرب، حزن على المدينة المقدسة وعلى مواطنيه أبناء يهوه، أخذ يناجي مـدينته كما يناجي الطفل جـثة أمه الميتـة، وكما يتأوه اليتـيم لفراق عائله الوحيد.

يقول عنه لوقا «وفيما هو يقـترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً: إنك لو علمت أنت أيضًا حتي في يومك هذا مـا هو لسلامك ولكن الآن قد أخفي عن

---

(١) إنجيل لوقا ص ٤: ٢٩ - ٣٠ .
(٢) لوقا (ص ٢٢: ٤٤).
(٣) يوحنا (١١ : ٣٣ - ٣٦).

عينيك، فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمبرسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك ولا يتركون فيك حجرًا على حجر»[1].

• في قبضة الشيطان:

وقع ابن الإنسان يومًا في قبضة الشيطان كما قد يقع أي منا في قبضته، وسمح الله للشيطان أن يجرب عبده عيسى، وأن يختبر مدى إيمانه وثبات يقينه، ليكون مستحقًا لتلقي رسالة السماء. جرب عيسى من الشيطان قبل أن يبعث رسولاً ليكون امتحان الشيطان له ونجاحه فيه جديرًا بأن يجعله رسولاً لرب العالمين.

تعرض عيسى للتجربة، ونجح في الاختبار فصار أهلاً لتلقي الرسالة ولحمل الأمانة، أتى الشيطان إلى عيسى وهو جائع، وأمره أن يسأل الله أن يحول الحجارة إلى خبز ليسد جوعه، ولكن عيسى أجابه «مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بكل كلمة تخرج من فم الله».

إجابة تدل على صدق عيسى الإنسان وإيمانه بالله خالقه، فهو يذكر الشيطان أن شريعة الله أن الإنسان لا يحيا بالطعام والشراب فقط ولكن بمشيئة الله، وأنه بصفته إنسانًا لا يبقيه في الحياة الطعام والشراب وإنما إرادة الله الذي يمسك البشر جميعًا بيمينه والذي حياتنا ومماتنا رهن إشارته، فما أهمية الطعام إذا قدر لنا الموت، وما جدوى الشراب إذا لم تكتب لنا الحياة.

ويعود الشيطان فيسأل عيسى الإنسان أن يجرب الله ربه ليعرف مقدار حبه ومدى حرصه عليه، فيأخذ الشيطان عيسى بين يديه ويذهب به إلى أورشليم ليوقفه على جناح الهيكل ويطلب منه أن يلقي بنفسه إلى أسفل مؤكدًا له أنه لن يموت، ويرفض عيسى إطاعة الشيطان والاستجابة لرغباته، ثم يعلن له شريعة

(١) لوقا (١٩ : ٤١ - ٤٤).

التوراة «مكتوب أيضًا لا تجرب الرب إلهك».

إجابة يؤكد بها عيسى للشيطان أنه لا يستطيع أن يجرب إلهه وأنه كمخلوق ضعيف لا يمكنه تجربة الخالق، فلا ينبغي للبشر أن يجربوا الله، وعيسى أحد البشر يسري عليه ما يسري عليهم. ويتململ الشيطان ويتضجر خوف الخسران فيلقي بورقته الباقية وبإغرائه الأخير وبفتنته الكبرى، يقول متى «ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عال جدًا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد»[1].

ألقى الشيطان بآخر سهم في جعبته ليستهوي ابن الإنسان ويخضعه لسلطانه، أخذ إبليس عيسى في قبضته وارتفع به إلى جبل عال جدًا قد يكون قمة أفرست في الهملايا، وأراه ممالك الدنيا وزينتها وزخرفها ووعده بإعطائه إياها وتنصيبه ملكًا عليها إذا سجد للشيطان وصار عبدًا له، ولكن عيسى المؤمن رفض أن يبيع نفسه للشيطان، وعلم أن من يسجد للشيطان فإنما يكفر بالله، ومن يعبد الشيطان يصبأ عن عبادة الرحمن، فليس لأحد في الوجود سلطان ولاسجود ولا عبادة إلا لله وحده لا شريك له.

أحس عيسى بالحفرة التي أراد الشيطان أن يوقعه فيها مغررًا به، وفطن إلى الهوة السحيقة التي تنتظره إذا استمع للشيطان، فرفض عرض إبليس، رفض ممالكه ومجد دنياه، وفضل رضى خالقه ومولاه طمعًا في ثوابه وبهاه.

وتجربه الشيطان لعيسى تستحق التأمل، فإذا كان عيسى هو الله كما يزعمون، فكيف يتقدم الشيطان وهو المخلوق لتجربة الخالق، لا يجربه فقط بل يأخذه في قبضته كلعبة بين يديه ويتسلط عليه، ويمتحنه ويختبره ويسبر غوره، ويأمره

(١) إنجيل متى (٤ : ١ - ١٠)، إنجيل لوقا (٤ : ١ - ١٣).

بالركوع والسجود له، هل يستطيع الشيطان أن يتسلط على الخالق؟ وهل يعقل أن الله يسجد للشيطان؟

ثم بماذا يغري الشيطان ربه؟! أيغريه بالدنيا وهو صانعها، أم يغريه بالناس وهو خالقهم؟! ثم من هو الله الذي له وحده يسجد عيسى وإياه وحده يعبد؟!

وعيسى الإنسان الذي فشل الشيطان في غوايته وفي الانحراف به عن طريق الحق، لم يفعل أكثر مما فعله إخوته الأنبياء الذين أفسدوا حيل الشيطان وخيبوا خططه معهم، فاستحقوا عن جدارة اختيارهم للرسالة واصطفاءهم للنبوة، يقول جل وعلا لخاتم المرسلين ﷺ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج: ٥٢ - ٥٤).

• للصلاة والدعاء:

وعيسى العبد الصالح كان دائم الصلاة، والدعاء لمولاه، كان مثال المتعبد الخاشع المتضرع لله، كان دائمًا في ركوع وسجود وشكر وحمد، وتهجد وتبتل لرب العالمين، كان يعلم أن الصلاة هي الصلة الوثيقة والرباط المحكم الذي يربط الإنسان بخالقه، وأنها أساس الإيمان وعماد الدين فحرص عليه السلام كسائر إخوته الأنبياء والصالحين أن يوطد هذه الصلة بينه وبين الخالق تبارك وتعالى، فكان يصل الليل بالنهار، والفجر بالضحى في عبادة الله ومناجاة علاه.

والأناجيل مليئة بالحديث عن صلاة عيسى.. العبد التقي الورع. «فقال للتلاميذ: اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك» (متى ٢٦ : ٣٦). «وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفردًا ليصلي ولما صار المساء كان هناك وحده»

(متى ١٤ : ٢٣). «في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال: أحمدك أيها الأب رب السماء والأرض» (متى ١١ : ٢٥). «وفي الصبح باكرًا جدًا (عند الفجر) قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك» (مرقس ١ : ٣٥).

«وبعدما ودعهم مضى إلى الجبل ليصلي» (مرقس ٦ : ٤٦).

«وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلي» (لوقا ٩ : ٢٨).

«وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله» (لوقا ٦ : ١٢).

عيسى يصلي لله في كل وقت، في العسر واليسر، وفي الليل وعند الفجر، يهرع إليه وقت الكروب ويحمده عند الاستجابة، يروي لنا الحواري لوقا عن إحدى الضيقات التي ألمت بعيسى عندما حاول بعض اليهود قتله لاعتقادهم ضلاله وكذبه، فيهرع عيسى إلى الجبل يضرع إلى الله أن يخلصه من أعدائه، يقول لوقا «وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه أيضًا تلاميذه ولما صار إلى المكان قال لهم : صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة، وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى قائلاً: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك، وظهر له ملاك من السماء يقويه، وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض»[1].

عيسى يصلي لله وقت الضيق، وأية صلاة تلك التي يصليها عيسى لربه، إنها أعمق صلاة، إنه يركع على الأرض ويجثو على ركبتيه ويدفن رأسه وهامته في التراب الذي منه خلق، ثم يرفع نظره إلى السماء ويبتهل إلى خالقه ويخشع له

(١) إنجيل لوقا (ص ٢٢ : ٣٩ - ٤٤).

ويهلع، ويتضرع إليه ويخضع، يصلي بأشد لجاجة وبأعنف حرارة حتى يتصبب منه العرق، وتتساقط قطرات العرق من جسده مشبعة بدمه.

حرارة في الصلاة وتألم وبكاء، وتذلل وخضوع، واستعطاف وخشوع، لا يبررها إلا البشرية والعبودية التي تربط عيسى بمولاه.

ويروي الإنجيل أنه أثناء صلاة عيسى ظهر له ملاك من السماء ليقويه، ويبدو أن الله قد عطف على عبده وأراد أن يزيل عنه خوفه، وأن يهدئ من روعه ويخفف من جزعه، فبعث له سبحانه أحد ملائكته ليقوي عزمه ويشد أزره، فلا ينهار أمام الظروف ولا يستسلم لأعدائه، أرسل الله لعبده ملاكًا يبشره أنه لن يتركه في أيدي الغادرين، بل سيخلصه من أعداء الحق والدين، ملاك مخلوق كعيسى حمل إليه رسالة النجدة والخلاص، فرفع معنوياته وطمأن قلبه وأعاد إليه السكينة والهدوء، كل ذلك بفضل الدعاء والصلاة.

يقول عز وجل: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٧٢).

• صراخ المصلوب:

من المؤكد أن المصلوب ظل يصرخ ويستغيث طالبًا النجاة، هذا الصراخ ليس مجرد صراخ المستغيث ولكنه صراخ اليائس، فلقد يئس المصلوب من النجاة وأحس بأن الله قد تخلى عنه وتركه في أيدي جلاديه يعذبونه ويصلبونه، إنه يصرخ إلى ربه قائلاً: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» لماذا تركت عبدك الضعيف في أيدي جزاريه؟ ولماذا تخليت عن عبدك المسكين في ساعة العسرة؟

إن هذا الصراخ من المصلوب ليس صراخ عيسى، فليس عيسى بالذي ييأس من رحمة الله، وليس عيسى بالذي يتركه ربه، وليس عيسى بالذي يعاتب الله لتركه إياه، إننا نرفض القول بأن ثقة عيسى في الله قد ضعفت في يوم من

الأيام، أو في وقت من الأوقات ولو كانت أشد اللحظات قسوة، فليس عيسى بأقل حالاً من آلاف الشهداء في مختلف العصور الذين استقبلوا الموت فرحين مستبشرين، وما صراخ المصلوب وهلعه، وما يأسه وجزعه، إلا دليل آخر يضاف إلى مئات الأدلة التي تؤكد أن المصلوب ليس عيسى، وأن (الله) ليس عيسى.

• عيسى بين الناس:

والناس جميعًا من معاصري عيسى ومواطنيه، وممن رأوه وجالسوه وتحدثوا إليه وآكلوه، من عاش بينهم وصادقوه، أو من لم يؤمنوا به وعادوه، هؤلاء جميعًا لم يروا في عيسى إلا إنسانًا مثلهم بشرًا مخلوقًا كغيره من أبناء آدم.. خلاف واحد نشب بين هؤلاء وهؤلاء بشأن عيسى الإنسان، خلاف بين محبيه ومبغضيه، بين أصدقائه وأعدائه، فأحباء عيسى رفعوه إلى مرتبة النبوة واعتبروه رسولاً، أما أعداؤه فأنزلوه إلى مرتبة الأدعياء الكاذبين واعتبروه دجالاً، وبين الأحباء والأعداء لم ير فيه باقي الناس سوى ابن الإنسان.

رفع الأصدقاء والأحباء عيسى إلى مرتبة النبوة، وصدقوا أنه رسول من لدن رب العالمين، يتحدث عنه رجلان من محبيه فيقولان «كان إنسانًا نبيًا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب»[1]. وتتحدث إليه المرأة السامرية التي قابلها عند البئر «قالت المرأة: يا سيدي أرى أنك نبي»[2]. وعندما كان عيسى يعظ الناس ويبلغهم رسالات ربه «فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا: هذا بالحقيقة هو النبي»[3].

وفي إنجيل متى «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل»[4].

---

(١) لوقا (٢٤ : ١٩).
(٢) يوحنا (٤ : ١٩).
(٣) يوحنا (٧ : ٤٠).
(٤) متى ٢١ : ١٠ - ١١).

وفي إنجيل لوقا نرى الناس يتحدثون عنه قائلين «قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه»[١].

ونرى في إنجيل يوحنا قول الجموع عن عيسى «إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم»[٢]. وعندما هاجم عيسى كهنة اليهود وأرادوا القبض عليه وتعذيبه خافوا من الشعب لأنه كان في منزلة الأنبياء «ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه يتكلم عليهم، وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي» (متى ٢١ : ٤٥ - ٤٦).

• مع التلاميذ:

وتلاميذ عيسى الذين كانوا لا يفارقونه بالليل أو النهار، والذين كانوا يعرفون من أمور عيسى ما لا يعرفه العامة والغوغاء، والذين كان يطلعهم عيسى على الأسرار والخفايا التي يحجبها عن الجماهير، ماذا عرفوا عن عيسى وماذا حسبوه؟ هل اعتبروه إنسانًا، أي إنسان يكون؟

هذا خليفته بطرس يقول عنه «يسوع الناصري رجل قد تبرهن من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده»[٣].

وهذا رسول المسيحية بولس يتحدث عن عيسى فيقول «الإنسان يسوع المسيح»[٤].

ويؤكد بولس أن الله هو سيد عيسى ومولاه «رأس المسيح هو الله»[٥].

والحقيقة أن الوصف الذي أطلق على هؤلاء الحواريين يوضح ببساطة كل شيء، الوصف الذي أطلقه عيسى عليهم، والذي أصبحوا يتباهون به، وصار

---

(١) لوقا (٧ - ١٦).
(٢) يوحنا (٦ : ١٤).
(٣) أعمال (٢ : ٢٢).
(٤) تيموثاوس (١ص ٣ : ٥).
(٥) كورنثوس (١ ص ١١ : ٣).

الناس جميعًا يعرفونهم به . . التلاميذ. تلاميذ من؟ تلاميذ عيسى. فمن يكون عيسى إذن؟ إنه المعلم، معلم التلاميذ، ومعلم الشريعة، ومعلم الديانة ومعلم الناس.

كان لقب المعلم هو اللقب المفضل لدى تلاميذ عيسى، ينادونه به فيفرح له وينشرح صدره، ما أحلاه من لفظ وما أجملها صفة تخلع على عيسى صفة المعلم والمرشد، المعلم الذي أرسله الله ليعلم الناس طريق الحق، وليرشدهم إلى سبيل الهدى.

ومن يتصفح الأناجيل يلاحظ بجلاء إصرار تلاميذ عيسى وأخصائه على مناداته بهذا اللقب العظيم، نرى في إنجيل مرقس حديثًا عن عيسى «وفيما هو خارج من الهيكل قال له واحد من تلاميذه: يا معلم انظر ما هذه الحجارة وهذه الأبنية»[١].

وهذا يوحنا ابن زبدى تلميذ عيسى الحبيب يناديه بنفس اللقب «فأجابه يوحنا قائلاً: يا معلم»[٢].

وبطرس التلميذ الأكبر «قال بطرس ليسوع: يا معلم جيد أن تكون ههنا»[٣].

وجميع التلاميذ ينادون أستاذهم بذات اللفظ «وفيما هو مجتاز رأى إنسانًا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين: يا معلم من أخطأ، هذا أم أبواه حتى ولد أعمى»[٤].

وكان تلاميذ عيسى يهتمون بأمر معلمهم ويحرصون على إشباع حاجاته الطبيعية والغريزية، من مأكل ومشرب وراحة ونوم وحماية وحراسة، حتى إذا

(١) مرقس (١٣ : ١١).
(٢) مرقس (٩ : ٣٨).
(٣) لوقا (٩ : ٣٣).
(٤) يوحنا (٩ : ١ - ٢).

نسي هو هذه الحاجات في خضم حماسه للتعليم والوعظ، كانوا يذكرونه بحق جسده عليه باعتباره إنسانًا.

يحدثنا الحواري يوحنا أنه في إحدى المرات كان عيسى يعظ إحدى النسوة وبقي يحادثها حتى حان وقت الطعام فذكره تلاميذه وطلبوا منه أن يأكل، يقول يوحنا «وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين: يا معلم كل»[١].

وكان التلاميذ المخلصون يخافون على معلمهم النحيل أن يهلك بأيدي أعدائه أو يناله الأذى بتدبير غرمائه، فكانوا يحرصون على إبعاده عن أماكن الخطر، يروي الحواري يوحنا أن عيسى أراد أن يذهب إلى بلدة اليهودية إحدى قرى إسرائيل ليعود صديقًا هناك، وكان أغلب أهل هذه القرية معروفين بعدائهم لعيسى، فلما أخبر المعلم تلاميذه برغبته خافوا عليه وسألوه ألا يذهب حرصًا على حياته، يقول يوحنا إن عيسى «قال لتلاميذه: لنذهب إلى اليهودية أيضًا، قال له التلاميذ يا معلم الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضًا إلى هناك».

والذي يلاحظ الجرأة والجسارة التي كان يتحدث بها التلاميذ إلى معلمهم، دون رهبة أو تكلف أو خشية، يملؤه اليقين بأن هؤلاء الذين خالطوا عيسى روحًا وجسدًا والذين ناموا معه وقاموا، لم يروا فيه سوى إنسانًا عاديًا لا يختلف عنهم في شيء، ولا يتميز منهم بغير الرسالة التي اختاره الله لها، بل إن عيسى المعلم لم يعدم أن يجد بين تلاميذه من ينتقد تصرفاته في غير موضع الرسالة.

يحدثنا الحواري يوحنا عن دهشة التلاميذ وتعجبهم عندما شاهدوا معلمهم يقف يومًا بأكمله يتحدث فيه مع امرأة سامرية، تاركًا جماهير الشعب والجموع

---

(١) يوحنا (٤ : ٣١).

والأتباع، ولم يشأ التلاميذ في البدء إحراج معلمهم فكتموا الأمر في نفوسهم، يقول يوحنا «وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة، ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب أو لماذا يتكلم معها»[١].

وكم عارض بطرس معلمه في تصرفاته، وكم ناقضه في أقواله وأفعاله، يقول متى «فأخذ بطرس وابتدأ ينتهره»[٢].

- **وسط العائلة:**

عاش عيسى وسط عائلته، بين أمه مريم وأبيه يوسف وسائر إخوته وأقاربه، لم يروا فيه شيئًا يبعده عن دائرة الآدميين أو ينأى به عن تربة البشر، لم ير فيه أبواه غير أحد أبنائهما الخاضع لهما، ولم ير فيه إخوته وأقرباؤه غير إنسان طيب وديع خير.

تربى عيسى وسط عائلته فغذوه وكسوه وقاموا على حاجاته، وتعهدوه بالرعاية والعناية فكان يتقدم مع الأيام في الحكمة والقامة عند الله والناس، وكان مثال الابن المطيع والديه المنفذ لأوامرهما، فإذا غاب عنهما انشغلا عليه وخافا أن يحل به مكروه، فإذا عاد أخذاه في أحضانهما وربتا عليه وأنّباه على تأخره، فإذا كبر اهتم بأمره ورعى شؤون نفسه، وسار في طريق الحق، حتى اصطفاه الله للرسالة.

وكما يحدث في كثير من البيوت، فإن بعض الأقارب وأحيانًا الأخوة تنشأ بينهم الأحقاد والضغائن ويكرهون أن يتميز عليهم قريب أو شقيق، فيهونون من أمره ويقللون من شأنه، بل يستهزئون به ويتندرون عليه حسدًا وغيرة.

وهذا الذي يحدث في كثير من البيوت حدث في بيت عيسى، لم يحدث من الأقارب البعيدين، بل من أدنى الأقارب، من إخوة عيسى أنفسهم، فهؤلاء

(١) يوحنا (٤ - ٢٧). (٢) متى (١٦ : ٢٢).

الذين كان الواجب يقتضيهم الوقوف بجوار أخيهم ومساعدته في المهمة التي اختاره الله لها، أنكروا نبوته وكذبوا رسالته واستهانوا به وتندروا عليه، لم يصدقوا أنه رسول الله ولم يصدقوا الآيات والمعجزات التي أظهرها الله على يديه؟ يقول الحواري يوحنا «قال له إخوته انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية لكي يرى تلاميذك أيضًا أعمالك التي تعمل لأنه ليس أحد يعمل شيئًا في الخفاء، وهو يريد أن يكون علانية، إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم»(١).

ويلاحظ هنا نبرة الكراهية والرغبة في التشفي التي يتحدث بها إخوة عيسى إليه «إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم»، لم يصدقوا أقواله وأفعاله فرغبوا أن يعلنها للعالمين فينكشف أمره أمام الجميع ويعلمون أنه دعي كاذب، ويكشف لنا الحواري يوحنا هذه الحقيقة المريرة في عبارته التالية فيقول «لأن إخوته أيضًا لم يكونوا يؤمنون به»(٢).

لقد آلم عيسى كثيرًا هذه المعاملة القاسية من بني وطنه وأهله وإخوته، آلمه تكذيب العامة والخاصة له واستهزاؤهم به، فصرخ بعبارته المشهورة التي صارت بعد مثلاً يروى عنه، لا كرامة لنبي في وطنه، «فقال لهم يسوع: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته»(٣).

● **في نظر نفسه:**

كان اللفظ الذي يحلو لعيسى إطلاقه على نفسه لفظ (ابن الإنسان) فهو أحد أبناء آدم، ابن البشر ومن ذات طبيعتهم، ولد كما يولدون، وعاش كما يعيشون، وذهب كما يذهبون، ويحرص عيسى طوال أحاديثه مع الناس أن يدعو

---

(١) يوحنا (٧ : ٢ - ٤).
(٢ يوحنا (٧ : ٥).
(٣) مرقس (٦ : ٤)، متى (١٣ : ٥٧)، لوقا (٤ : ٢٤)، يوحنا (٤ : ٤٤).

نفسه بهذا اللقب «ابن الإنسان»، ويتكرر هذا الوصف لنفسه على لسانه في كافة الأناجيل.

(انظر مثلاً متى: ٨ : ٢٠ ، ١١ : ١٩ ، ١٢ : ٣٢ ، ٤٠، ٢٠ : ٢٨ ، ٢٤ : ٣٠، ٢٠ : ٣١، ٢٦ : ٢٤، مرقس ٢ : ٨، ٩ : ٩، ١٤ : ٤١، لوقا ٩ : ٥٦، ١٧ : ٢٤، ١٨ : ٨، يو ٣ : ١٣ ، ٥ : ٢٧، ١٣: ٣١، ٦ : ٢٧ وغيرها كثير).

ويحدثنا الكاتب أميل لودفيج عن تصور عيسى لنفسه فيقول «لم يفكر يسوع في أنه أكثر من نبي وليس بقليل أن يرى نفسه في بعض الأحيان دون النبي، ولم يحدث أبدًا من يسوع ما يخيل به إلى السامع أن له خواطر وآمالاً فوق خواطر البشر وآمالهم، وما كان يسوع ليذهب إلى أبعد من ذلك فيدعي أنه المنقذ المنتظر فإذا ما قال الناس إنه أحد قدماء الأنبياء راقه ذلك موجهًا أفكارهم إلى ملكوت السموات، والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه إنه «ابن الإنسان»، وقديمًا أراد الأنبياء أن يلفتوا الأنظار إلى الهوة الواسعة التي تفصلهم عن الله، فكانوا يسمون أنفسهم بأبناء الإنسان، ومن هؤلاء دانيال وحزقيال اللذان أظهرا الرب مخاطبًا كل واحد منهما «بابن الإنسان» أي بآدمي ضعيف هالك ولد ليفنى، ولكن مع استعداد لنيل عفو الرب»[1].

وإذا ناداه التلاميذ باللقب الذي كان يحلو لهم إطلاقه عليه «المعلم» سر به ودعا أتباعه أن يعتبروا الله أباهم وأن يعتبروه معلمهم، يقول عيسى «لا تدعو لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات، ولا تدعوا لكم معلمين لأن معلمكم واحد المسيح»[2].

---

(١) اميل لودفيج: ابن الإنسان - ترجمة عادل زعيتر ص ٩٥ .

(٢) متى (٢٦ : ١٨).

وهذا المعلم ابن الإنسان لا يعلم من عنده، ولا يتكلم من ذاته، ولا يعظ من نفسه، فليس التعليم تعليمه وليست الرسالة رسالته، وليست الشريعة شريعته، وإنما هو تعليم الله، ورسالة الله، وشريعة الله، وليس عيسى إلا مبلغًا ومذكرًا ورسولاً، فمن قبل تعاليمه فإنما يقبل تعاليم الله، ومن يؤمن به فقد آمن بالله، ومن يقبله يقبل الله.

حقيقة يعلنها عيسى دائمًا، ويرددها بلا وجل ولا حرج، يقول عيسى «ما أتيت لأصنع مشيئتي، بل مشيئة من أرسلني»[1].

«كما أن تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» (يو ٧ : ١٦).

لذلك فإن «من قبلني فليس يقبلني أنا بل الذي أرسلني» (مر ٩ : ٣٧) و«الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني» (يو ١٢ : ٤٤).

ولكن من هو الذي أرسل عيسى؟ ومن هو سيد عيسى ومولاه؟

في محاورة بين عيسى وبعض اليهود يعلن عيسى أن مرسله هو الله ربه ورب العالمين، وأنه لا ينطق إلا بما أمر الحق تبارك وتعالى، يقول الحواري يوحنا «فقال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم، أنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: إننا لم نولد من زنا لنا آب واحد وهو الله، فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله وأتيت، لأني لم آت من نفسي بل ذاك الذي أرسلني»[2].

ويطلب عيسى من مواطنيه أن يؤمنوا به كرسول من عند الله، يقول يوحنا «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله، أجاب يسوع وقال لهم: هذا هو عمل الله

(١) يوحنا (٦ : ٣٨).
(٢) يو (٨ : ٣٩ - ٤٢).

أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»[1]. ويؤكد عيسى دوامًا أنه ينفذ مشيئة الله ويبلغ شريعة الله ويدعو دائمًا لله، ولا يفعل من نفسه شيئًا ولا يدعو لنفسه أبدًا، وإلا كان كاذبًا دعيًا، يقول عيسى «إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي، من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من طلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم»[2].

ويشبه عيسى نفسه بالأنبياء قبله، بيونان ويوحنا وغيرهم من الأنبياء، فهو نبي من أنبياء الله كالسابقين، ورسول من رسله الصالحين، يقول عيسى «كما كان يونان آية لأهل نينوى كذلك يكون ابن الإنسان أيضًا لهذا الجيل»[3].

ويقول لليهود «معمودية يوحنا من أين كانت؟ من السماء أم من الناس؟.. ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا»[4].

أتى مرة لزيارة أورشليم فطلبوا منه أن يغادرها لأن الحاكم هيرودس يريد قتله، «في ذلك الوقت تقدم بعض الفريسين قائلين له: اخرج واذهب من هنا لأن هيرودس يريد يقتلك»، ويتضايق عيسى من هذه المعاملة السيئة، ويتبرم بهؤلاء القوم الذين طالما أساؤوا معاملة إخوته الأنبياء السابقين، فحاربوا من شاؤوا بلا ذنب ولا جريرة، يرد عيسى على أهالي أورشليم موضحًا لهم صفته كنبي من الله، معاتبًا المدينة التي طالما قتل فيها الأنبياء قبله فيقول «ينبغي أن أسير اليوم وغدًا وما يليه لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج عن أورشليم، يا أورشليم، يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها»[5].

ويخاطب الكتاب الكريم مكذبي الرسل وقاتلي الأنبياء فيقول لهم متوعدًا،

---

(١) يو (٦ : ٣٨ - ٣٩).

(٢) يو (٧ : ١٧ - ٨).

(٣) لوقا ١١ : ٣٠.

(٤) متى (٢١ : ٢٣ - ٢٧).

(٥) إنجيل لوقا (١٣ : ٣١ - ٣٤).

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (البقرة ٨٧ - ٨٨).

وابن الإنسان عيسى كان مثال التواضع، رفض أن يرفعه الناس فوق مرتبته، أو يمنحوه سلطة ليست له أو يدعوه بوصف ليس فيه.

أتاه يومًا رجل وسأله «أيها المعلم: مر أخي يقاسمني الميراث» فأجاب عيسى في دهشة «أيها الإنسان: من أقامني عليكما قاضيًا أو حسيبًا؟».

نعم فليس عيسى حاكمًا ولا قاضيًا، ولا رقيبًا ولا حسيبًا على الناس، إنه فقط موضح ومنبه ومعلم ومرشد، ليس عليه إلا البلاغ، يقول سبحانه لرسوله الكريم: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾.

أتى رجل إلى عيسى ووصفه بالصلاح، يقول الحواري متى «وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية. فقال له: لماذا تدعوني صالحًا ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله». حتى صفة الصلاح رفض عيسى أن يتصف بها، فابن الإنسان شأنه كسائر إخوته البشر، قد يصيب وقد يخطئ، وقد يحسن وقد يسيء، وقد يصلح وقد يفسد، ولا صالح إلا الله، رب عيسى ورب الناس أجمعين.

يورد الحواري برنابا في إنجيله إعلان عيسى للناس مؤكدًا لهم عبوديته لرب العالمين، مبرئًا نفسه من ترهات المشركين والكافرين، يقول عيسى «إني أشهد أمام السماء ، وأشهد كل ساكن علي الأرض أني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم من بشر، لأني بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام».

ولقد بلغ تواضع عيسى قمته، وبلغ انسحاقه غايته، فكان يغسل بنفسه أرجل تلاميذه، وينحني بهامته تحت أقدام التلاميذ، يأخذ أرجلهم المتسخة بين يديه

النظيفتين، ويصب عليها الماء ويدلكها بالصابون في عناية ثم يمسحها بالمنشفة، يروي يوحنا أن عيسى «قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها، ثم صب ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها»[١].

هذا التواضع وهذا الانسحاق هو الذي دعا بولس أن يشبه عيسى بالعبد، يقول بولس عن عيسى «أخلى نفسه آخذًا صورة عبد» (٢ : ٦)، وصدق بولس، وصدق الناس، وصدق عيسى قبل الجميع فعيسى حقًا هو العبد، عبد الله ورسوله، نعم العبد الصادق الأمين، كان أمينًا في القليل فأقامه الله على الكثير، وضع نفسه في موضعها، والتزم طبيعته وحدوده، لم يرض أن يغتصب شيئًا ليس له، أو يدعي صفة ليست فيه.

نعم العبد الصالح، الذي أبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، فاستحق رضا الله والناس، وصلاة الله والملائكة، ونعيم الله وجناته، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾ (مريم : ٣٠ - ٣٦)

صدق الله العظيم

«تم بحمد الله»

(١) إنجيل يوحنا (١٣ : ٤ - ٥).